

جهود علمائه في الفقه المالكي - فلاسفته وحضارته

مع رحلة (الاكسير في فكاك الأسير)

في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد



تأليف

أ.د. مزاحم علاوي الشاهري

الدار العربية للموسوعات



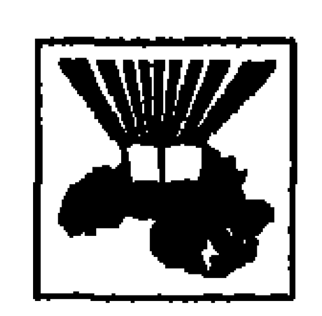
جهود علمائه في الفقه المالكي - فلاسفته وحضارته
مع رحلة (الاكسير في فكاك الأسير)
في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد

اسم الكتاب: تاريخ المغرب في العصر الوسيط

المؤلف: أ. د. مزاحم علاوي الشاهري

الطبعة الأولى: ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

ISBN 978-614-424-162-2



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

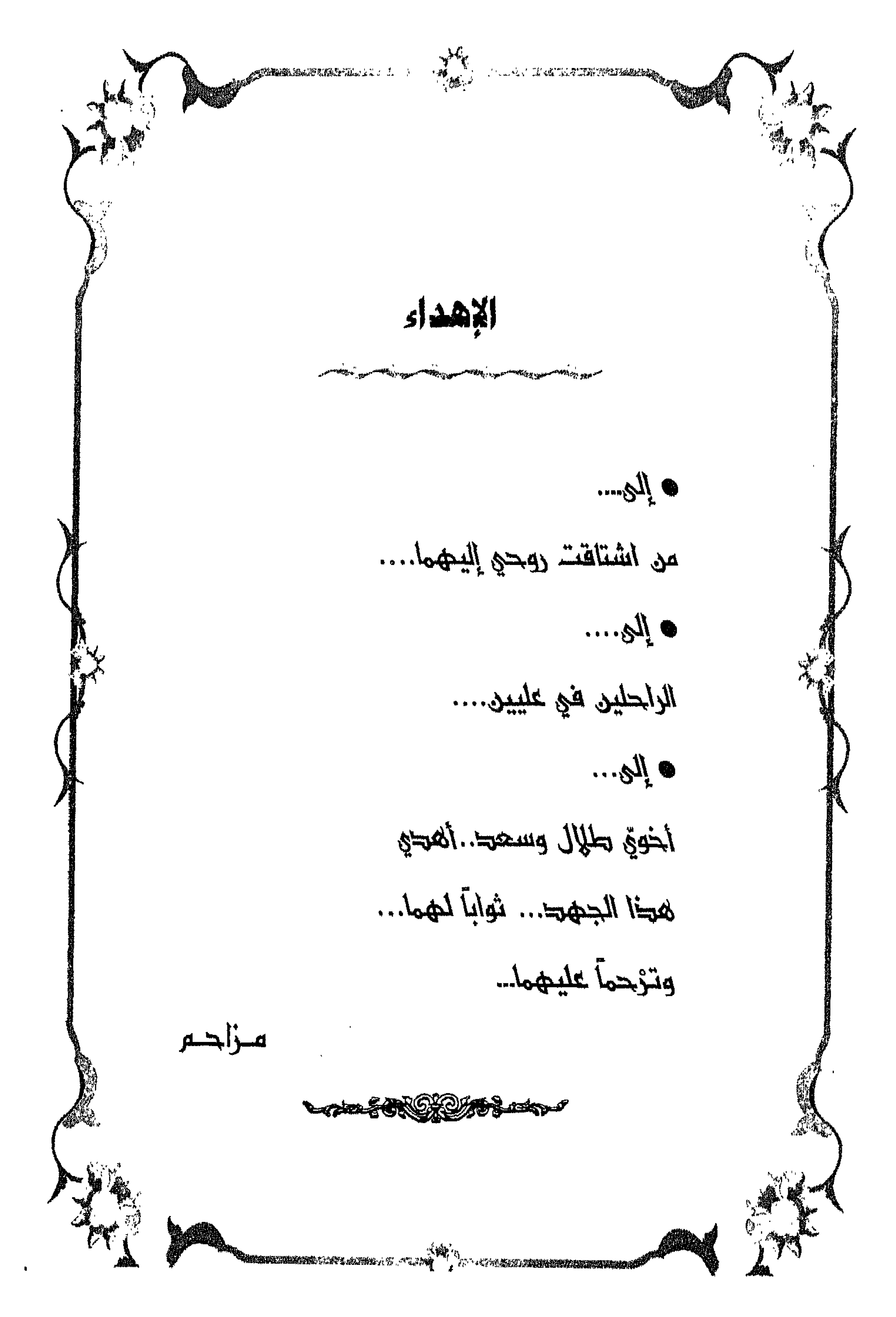
الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com



جهود علمائه في الفقه المالكي - فلاسفته وحضارته
مع رحلة (الاكسير في فكاك الأسير)
في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد

تأليف
أ. د. مزاحم علاوي الشاهري

الدار العربية للموسوعات
بيروت



الإهداء

- إلى....

من اشتاقت روحي إليهما....

- إلى....

الراحلين في عليين....

- إلى...

أخويَّ طلال وسعد..أهدي

هذا الجهد... ثواباً لهما...

وترحماً عليهما...

مـزاحـم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدلله نحمده ونستعين به ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بيني وبين المغرب العربي صلات كثيرة، فأنا وقبل كل شيء عربي تشربت روحي بحبه، مذ كنت صغيراً ألتحف دفء أمي، وأصغي إلى صوت أبي وهو يقص على أسرتنا «تغريبة بني هلال» بأحداثها المثيرة، وبطولاتها، وأشعارها الأخاذة، بلى كانت سحراً وترانيم ليلية هادئة أسرح في فضاءاتها الدافئة، محلقاً نحو عوالم من المتعة والجمال.

لقد حفرت تلك البلاد الخضراء - المغرب - في ذاكرتي حباً لم تقو كل الحوادث أن تنسيني شيئاً منه، فكبرنا معاً، أتقدم نحوه معانقاً أحداثه في صفحات جديدة أخرى حتى وقتنا الراهن.

ثم كانت بيني وبينه عقوداً أخرى من العمر قضيتها بحثاً وتأملاً في تاريخه، أستطلع كنوزه، وأوغل في أدق صفحاته، مزهواً بإنجازات أبنائه، وعظم مآثرهم، وجهودهم المضنية في رفع شأن الأمة ومقامها منذ أن تحركت رايات الفتح العربية الإسلامية إليه لتعيده إلى حضن الأمة التي

بزغت شمسها في أرض الجزيرة العربية، فكان للقادة المسلمين فيه تضحيات جسيمة هي عربون محبتهم له، ووشائج صلتهم به.

أجل لقد أمضيت عقوداً من العمر أبحث في زوايا من تأريخه، ولا أدعي أنني أول من كتب بها، ولكن لي فيها لمسات اكتسبتها من تلك الليالي التي أمضيتها درساً وبحثاً وإشرافاً.

لقد وجدت في هذه الإضمامة التي أسميتها « تاريخ المغرب في العصر الوسيط» وشائج أساسية بين بحوثه، فهو يتحدث في بعض بحوثه عن عطاء مدنه العلمية كفاس وتلمسان وبجاية وندرومة وغيرها، وفي أخرى يظهر مزاياه الحضارية التي انبثقت منه كالرحلات والاحتفالات بالمولد النبوي، والمناهج التي اعتمدوها في تصنيف مؤلفاتهم،وغيرها من البحوث التي تعمق ما رمنا إليه في الكشف عن معطياته الحضارية الأصيلة.

وأنه لمن دواعي المحبة أن أقدم في هذا الكتاب حقبة من تاريخ حضارة المغرب العربي في العصر الوسيط من خلال إضمامة من البحوث التي تجتمع بوحدة موضوعها وتتناول مظاهر حضارية متنوعة عنه إذ عالج بعضها الحياة العلمية في بعض مدنه والبعض الآخر درس جهود علمائه وإنتاجهم الفكري والعلمي، وسلطت البقية بمضامينها على ظواهر ثقافية انتشرت هناك، ووضعت معها بحثاً اهتم برحلة أحد رجالاته إلى إسبانيا على الرغم من تأخر عصر مؤلفه إلّا أنني آثرت درجه هنا لأهمية الرحلة في حضارة المغرب.

إن الغالبية من بحوثه قد كتبت للمشاركة في مؤتمرات علمية أقيمت بعدد من أقطار المغرب والمشرق، وتحقيقاً للفائدة قمت بجمعها كي تكون سهلة المنال للمعنيين بحضارة المغرب العربي في العصر الوسيط،

وزيادة على ذلك فهي معدة بأسلوب علمي، توخيت فيها توثيق المعلومة التاريخية بالرجوع إلى المصادر الأولية.

ولي وطيد الأمل أن ألفت انتباه الباحثين والمهتمين بالدراسات المغربية في العصر الوسيط إلى التوسع بتلك الدراسات لما لها من أهمية فهي ما تزال في غالبية موضوعاتها بحاجة إلى بحث وتقصي نظراً لجدتها وثرائها، فهي حقل خصب ينتظر جهد أبناء الأمة لدراسة ذلك الجزء الحيوي من وطننا.العربي الكبير إعلاء لشأن الأمة.

إنها حقاً شهادة على مجهوداته في حضارة الأمة ووحدة نسيجها وإسهاماً جاداً على عطائه وهذا لا يعني أنني قد استوفيت حقه من البحث ولكن هي مساهمة طيبة أرجو أن أكون قد وفقت فيها، وختاماً فإن وفقت إلى ذلك فمن فضل الله عليّ، وإن قصرت عن الوفاء به فالله أسأل أن يسدد خطاي ويجزيني بقدر نيتي والله من وراء القصد، له الشكر وله الحمد وهو ولينا نعم المولى ونعم النصير

المؤلف

جهود علماء المغرب

في الفقه المالكي في القرن الثامن للهجرة

أولاً: عناية المرينيين بالعلم والعلماء ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

لما كانت عناية المرينيين واضحة بالعلم ومنشآته فقد كان من الطبيعي أن يكون بلاطهم مجلساً مهماً من المجالس العلمية، فقد كانت نفوس سلاطينهم تشتاق إلى ((مخالطة أهل العلم وترفيع مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام))[1]، ولعل هذه الإشارة تكشف عن تفصيلات عديدة وتوضح لنا مدى التصاق السلاطين المرينيين بالعلماء ومخالطتهم، ويكفي لبيان طبيعة مجلس الدولة الأعلى في عهد أبي الحسن أن نشير إلى أنه أبان فتحه لأفريقيا قدم إليها في سنة (٧٤٨هـ-١٣٤٧م)، ومعه رجال العلم في مختلف فنونه حيث ((كان يلزمهم شهود مجلسٍ ويتجمل بمكان فيه))[2]. وقد شبه عثمان الكعاك رحلة العلماء إلى تونس مع أبي الحسن برحلة العلماء الفرنسيين مع نابليون إلى مصر[3].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ٦/ ١٠٥.

(٢) ابن خلدون: الرحلة، ٢٠.

(٣) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، ٣٢٤.

وكان غرق أسطوله بمثابة انتكاسة علمية فذهب ضحيتها صفوة من خيرة علماء المغرب بلغ عددهم (٤٠٠) عالم[١] والواقع أن المجلس بقي مستمراً في مهامه العلمية في السلم والحرب ومواعيده تتوزع بين أوقات معلومة خلال اليوم الواحد حيث يبتدئ بعد صلاة الفجر، ثم يعود بعد صلاة العصر، وقد يستمر إلى فترات متأخرة من الليل أحياناً، وخاصة في الفترات التي تشهد استقراراً، ويكون البلاط غير منشغل بهموم السياسة والحكم[٢].

أما فيما يتعلق بالمواد العلمية التي تقرأ فيه فنجد في مقدمتها القرآن الكريم والحديث، وغالباً ما كان يتم قراءة ((خمسة أحزاب من القران وربما قرئ أربعة في يوم واحد، أما الحديث فنجد أن المجلس اهتم بالبخاري الذي قرئ مرات والموطأ، إضافة إلى كتاب الفقه، وخاصة كتاب التهذيب البراذعي، وكتاب ابن الحاجب وكتاب الشفا للقاضي وما كتبه ابن الجوزي في معظم مؤلفاته وعلى وجه الخصوص كتاب المدهش وتفسير القرطبي، وتفسير الثعلبي)). كما اهتم المجلس بدراسة عدد من الكتب مثل الاكتفاء لأبي الربيع، وسراج الملوك للطرطوشي والفرج بعد الشدة للتنوخي وفتوح الشام للواقدي والحلية لأبي نعيم، إضافة إلى كتب أخرى في السير والتاريخ.

تمتع العلماء بمكانة مرموقة في عهد السلطان أبي الحسن ولعل الأمر الأول الذي يدل على ذلك أنه ما من عالم برع في علم ما أو ذكره علماء مجلسه إلّا وشمله السلطان برعايته وضمه لمجلسه وقيل إنه

---

(١) ابن القاضي: لقط الفرائد، ٢٠٣. المقري: نفح الطيب، ٤/ ٢١٥. ابن عبدالله: تاريخ المغرب، ١/ ١٥١.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٧٧، ١٣٩.

((أستخلصهم لنفسه وجمعهم من سائر بلاده في حضرته، إذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضراً وسفراً، فاجتمع بحضرته أعلام))[(١)] وأول ما يستوقف المرء في تراجم العلماء أولئك الذين برعوا في علومهم، فتصدروا قائمة العلماء الذين ضمهم هذا المجلس ورعاهم السلطان وهيأ لهم أن يكونوا زينة مجلسه العلمي[(٢)].

والأمر الثاني السماح لهم بارتداء الزي الأبيض وهو اللباس الخاص بالسلطان إضافة إلى كونه علم الدولة المرينية ورمزها، فقد ذكر العمري عن ذلك قائلاً: ((ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه، فأما العلماء وأهل الإصلاح. فإنه لا حرج عليهم في لبسه))[(٣)]، في حين يشير في موضع آخر: ((وشعار هذه المملكة هو اللواء الأبيض.. وهو المسمى عندهم «العلم الأبيض»))[(٤)].

ومن العلماء الذين كانوا في طليعة هذا المجلس، عبد المهيمن بن محمد الحضرمي (توفى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م) كاتب السلطان أبي الحسن[(٥)]، وعبدالله بن يوسف بن رضوان البخاري (توفى ٧٨٣هـ-١٣٨١م) الذي ذاع صيته في العربية والأدب[(٦)]،و أبو عبدالله محمد بن النجار (توفى٧٥٠هـ)

---

(١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦٠.

(٢) ابن خلدون: الرحلة، ٢٠ وما بعدها.

(٣) وصف المغرب: ٣٠٥.

(٤) وصف المغرب: ٣٠٨. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/٢٠٦.

(٥) ابن الأحمر: مستودع العلامة، ٥٠. المقري: نفح الطيب، ٥/ ٢٤٠. ابن الخطيب: أوصاف الناس، ٩٩-١٠٠.

(٦) ابن خلدون: الرحلة، ٤٢. التنبكتي: نيل الابتهاج، ٣٨٤-٣٨٦، الناصري: الاستقصا، ١/١١١. ابن الأحمر: مستودع العلامة، ٥١-٥٢.

من أهل تلمسان وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها[١]، والخطيب بن مرزوق التلمساني[٢] (توفى ٧٨١هـ-١٣٧٩م)، ومحمد بن عبدالله بن عبد النور (توفى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م) وكان بارزاً في علوم الفقه، وأعطاه السلطان مهمة القضاء في جنده[٣]، والفقيه محمد بن محمد الصباغ (مات غريقاً سنة ٧٥٠هـ-١٣٤٩م) وقيل إنه كان ((مبرزاً في المنقول والمعقول، وعارفاً بالحديث ورجاله، إماماً في معرفة كتاب الموطأ وأقرائه))[٤]، ومحمد بن علي بن سليمان السطي (مات غريقاً سنة ٧٥٠هـ-١٣٤٩م) وقيل عنه إنه ((كان في الفقه لا يجارى حفظاً وفهماً))[٥]، وابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى اللذان قال عنهما ابن خلدون ((هم سباق الحلبة في مجالس السلطان ابن الحسن، اصطفاهم لصحبته من بين أهل المغرب))[٦]. ومحمد بن إبراهيم الابلي (توفى ٧٥٦هـ-١٣٥٦م) شيخ العلوم العقلية[٧]. وأحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب[٨]. وأبو عبدالله الرندي الذي كان ((إماماً في العربية، مقدماً في

---

(١) ابن خلدون: الرحلة، ٤٨. الونشريسي: الوفيات، ١١٨.

(٢) ابن خلدون: الرحلة، ٥٠-٥٦. ترجم له ابن مريم: البستان، ١٨٤-١٩٠. وللمزيد ينظر: ابن شقرون: من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي، ١٢٨-١٤٠.

(٣) ابن خلدون: الرحلة، ٤٦-٤٧.

(٤) ابن خلدون: الرحلة، ٤٦. الونشريسي: الوفيات، ١١٧.

(٥) ابن خلدون: الرحلة، ٣٢-٣٣. ابن مرزوق: المسند. ٢٦١. المقري: نفح الطيب، ٥/ ٢٤٠-٢٤١. الونشريسي: الوفيات، ١١٧. القرافي: توشيح الديباج، ورقة ١٩٥.

(٦) الرحلة، ٢٩-٣٢. ترجم لهم، ابن مريم: البستان، ١٢٣-١٢٦.

(٧) ابن خلدون: الرحلة، ٢١. وانظر ترجمته أيضاً في الصفحات ٢٢-٢٣، ٣٣-٣٩.. ابن حجر: الدرر الكامنة، ٣/ ٣٧٥. المقري: نفح الطيب، ٥/ ٢٤٤-٢٤٨. ابن مريم: البستان، ٢١٤-٢١٩. الونشريسي: الوفيات، ١٢٢.

(٨) ابن خلدون: الرحلة، ٢٣.

النظر))[١]، وإبراهيم بن أبي يحيى التسولي التازي ((كان أجمل الفقهاء محاضرة وأجمعهم مشاركة وأحسنهم في حسن المعاملة طريقة))[٢]، والفقيه القاضي أبو عبدالله محمد بن ولي الله علي بن عبد الرزاق الجزولي (توفى ٧٥٥هـ-١٣٥٤م) ((نادرة وقته، وحيد عصره))[٣]، والفقيه عمران بن موسى المشذالي (توفى ٧٤٥هـ-١٣٤٤م)[٤]، والفقيه القاضي أبو عبدالله الفشتالي الذي قيل عنه ((نخبة المغرب ونادرة فقهاء فاس علماً وأدباً))[٥]، والفقيه محمد بن أبي مدين وكان ((عزيز الأدب، جم الحياء والأدب.. كتب في حضرة السلطان. فلم يزل بها... ثم كتب له العلامة بجبل هنتانة))[٦].

وبلغ أعضاء هذا المجلس ما انتهوا إليه من درجة عالية في الرأي، نقل عن السلطان أبي الحسن أنه كان ((يتحدث في الأمور في مجلسه ويفاوض فيه أهل حضرته على قدر كبر الأمر و صغرهِ وعلى حسن اختلاف المناصب والمراتب))[٧]. وزيادة على ذلك فقد اضطلع المجلس بمهام تدريسية، ولعل من أبرز شواهد دور أولئك العلماء في رحلتهم إلى تونس مع السلطان أبي الحسن[٨]، حيث درس السطي ابن عرفة عندما طلب

(١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦١. يشير إلى أنه مات في الطاعون سنة ٧٤٠هـ. المقري: نفح الطيب، ٥/ ٢٤١.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦٢.

(٣) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦٢.

(٤) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦٨.

(٥) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٢٦٨.

(٦) ابن الأحمر: مستودع العلامة ومستبدع العلامة، ٤٦.

(٧) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ٣٥٣ وما بعدها.

(٨) ابن خلدون: الرحلة، ٢٠-٢١.

الأخير منه قراءة الحوفي فأجابه بأنه لا يمتلك وقتاً إلّا بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية، وانتقد ابن الصباغ المكناسي شرح المختصر الفقهي لابن الحاجب الذي كتبه ابن عبد السلام التونسي (توفى ٧٥٠هـ-١٣٤٩م)[١]، حيث ناقشه في أربع عشرة مسألة وهي من الاعتراضات التي ثبتها على شرحه دون أن يتمكن من تفنيد إحداها[٢].

ولعل قصيدة أبي القاسم الرحوي خير تعبير عن هذا اللقاء العلمي ما بين المغاربة والتونسيين، ومطلعها:

هم القوم كل القوم أما حلومهم
فارسخ من طودي ثبير وثهلان[٣]

وباستثناء العالم التونسي ابن عبد السلام وتلميذه ابن عرفة، فقد أبرزت هذه المناظرات والمناقشات مكانة المغاربة على التونسيين خاصة في حفظهم لكتاب التهذيب عن ظهر قلب، فقد وصف ابن عبد السلام بأنه: ((بحر تلاطمت أمواجه، فكان يقطعهم واحدا بعد آخر)) حتى قال السطي عنه للسلطان: ((يا علي كذا يكون التحصيل وكذا يقرأ الفقه، ولو لم يكن بتونس إلّا هذا الإمام لكان بها كل خير، من ملازمة هذا لهذا المجلس، حتى ينتفع به أصحابنا، وننتفع بطريقته))، فكان ذلك حثاً للسلطان أبي الحسن في اختيار العلماء من أجل إلقاء دروس في اختصاصاتهم، وقد شرع ابن عبد السلام بإلقاء المحاضرات، فلم يكتب له الاستمرار بسبب مرضه، ونكبة أبي الحسن في القيروان[٤].

---

(١) النباهي: المرقبة العليا، ١٦١-١٦٣.

(٢) التنبكتي: نيل الابتهاج، ٧٣٦.

(٣) ابن خلدون: الرحلة، ٢٤-٢٦.

(٤) المنوني: ورقات عن الحضارة، ٣٢٧-٣٢٨.

وأخيراً فإن علماء تونس لم يكونوا بمعزل عن رعاية السلطان أبي الحسن. فقد ضم منهم إلى مجلسه علماء من أمثال قاضي الجماعة أبي علي عمر بن عبد الرفيع وأبي عبدالله محمد بن هارون الكناني(١).

ثانياً: الدراسات الفقهية في العصر المريني - القرن الثامن للهجرة ●●●●●

تركت البيئة المغربية قبل حلول حكم الدولة المرينية جملة من العوامل التي عززت من انتشار المذهب المالكي، ووطدت دعائمه في الأوساط الشعبية والرسمية على عهد المرينيين.

فقد استجاب الموحدون وتعاطفوا مع المذهب الظاهري الذي كان يحرص وبشدة على الاعتماد على القرآن الكريم والحديث الثابت في تفسير الأحكام، ويعدهما أساسين في صياغتها(٢) وذلك يتطابق مع عقيدتهم التي كانت ترى ضرورة الالتزام بهذين المصدرين والكف عن الأخذ بالرأي والتقليد، أي بمعنى آخر إبطال العمل بعلم الفروع(٣).

واستناداً إلى تلك الحقائق تعزز موقف الظاهرية في بلاد المغرب والأندلس(٤) وفي ذلك ما يفسر الكلمة المأثورة التي قالها السلطان يعقوب المنصور بحق ابن حزم(٥)، عندما مر على قرية الأخير وقبره فيها: ((عجباً

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ٦٦٥٦.

(٢) المراكشي: المعجب، ٧١. المقري: نفح الطيب، ٢/ ٧٧-٨٨٠ أمين ظهر الإسلام، ٣/ ٥٣ وما بعدها.

(٣) المراكشي: المعجب، ١٨٥/ ٣٥٤-٣٥٥. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ٣٢٧.

(٤) الغبريني: عنوان الدارية، ٢٤٧. الحسيسن: مظاهر النهضة الحديثية، ١/ ١٩٣.

(٥) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، توفي في سنة (٤٥٦هـ-١٠٦٣م). المراكشي: المعجب، ٧١. المقري: نفح الطيب، ٢/ ٧٧-٨٨، والمزيد عنه ينظر، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ٢١٣-٢٣٩. الكتاني: مؤلفات ابن حزم، ٨٧-١٠٧.

لهذا الموضوع يخرج مثل هذا العالم! ثم قال كل العلماء عيال على ابن حزم))[١].

ولم تتوقف نصرة الموحدين للظاهرية على عهد السلطان يعقوب الموحدي فحسب بل اتخذت سبيلا أخر وذلك من خلال محاربة المذهب المالكي بوسائل متعددة، وخاصة لفقهائه الذين تعرضوا لعقوبات قاسية انتهت ببعضهم إلى الموت[٢]، أما مصنفات المذهب المالكي فقد جمعت من البلاد وأحرقت[٣].

ولم تكن المحنة التي عانتها المالكية وفقهاؤها بعيدة عن قلوب العامة، ولم تكن تلك الأساليب القسرية التي لجأ إليها الموحدون إزاء المذهب المالكي كافية للقضاء عليه، إذ أن النار الموحدية التي أضرمت سرعان ما انطفأت على عهد المرينيين، الذين استجابوا للمذهب المالكي[٤]، وناصروا فقاءه، وشجعوا طالبي الفقه على الدرس والتحصيل، حتى بات عهدهم من المراحل التي تميزت بنشاط واضح في ميدان الدراسات الفقهية بروحية دؤوبة لم تعرف الكلل[٥].

إن القيمة العلمية والمكانة اللتين تمتع بهما الفقيه في العصر المريني كانت ظاهرة بارزة، فسمة الفقيه كانت تحظى بموضع الإجلال والتقدير،

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٢٣٨.

(٢) ملين: عصر المنصور الموحدي، ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) المراكشي: المعجب، ٣٥٤.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ١٩-٢١. والمزيد، ينظر ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ١١٨. الغافية: صمود مذهب المالكي واستمراريته، ١٥.

(٥) كنون: النبوغ المغربي، ١/ ١٩٤. ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، ٥١. ابن قنفذ: الفارسية: مقدمة المحقق، ٣٤-٣٥. وللمزيد عن موقف المغاربة آنذاك إزاء المذهب المالكي ينظر الونشريسي: المعيار، ٢/ ١٦٩.

فالكاتب واللغوي والنحوي كان ينعت بالفقيه تقديراً لمكانته، وهي في ذلك تشبه مكانة القاضي في المشرق الإسلامي[١]، وزيادة على ذلك فقد بلغت مكانته عندهم درجة غنية عن البيان ففي قصة الشيخ الفقيه عبد العزيز القوري (توفى ٧٥٠هـ-١٣٤٩م)[٢]، مع السلطان أبي الحسن عندما حضر إلى مجلسه فقد قال له السلطان: ((تخرج مع عامل الزكاة: فقال عبد العزيز اما تستحي من الله تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم)) فضربه السلطان بالسكين التي كان يحبسها بيده على عادته... وقال له هكذا تقول لي، فبادر إليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه إطفاء لغضبه... وقام السلطان إلى داره... ثم خرج فقال ردوه علي فردوه واعتذر إليه، وقال له طيب نفسك علي، فاني علمت انك ما قلت إلّا الحق))[٣].

أما فيما يتعلق بالتأليف الفقهي في هذه المرحلة فالغالب عليها الشروحات والتعليق والمختصرات، وقد فسرت هذه الظاهرة بغياب الاجتهاد وقيل ((... وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد ولهذا العهد مردود على عقبيه مهجور تقليده))[٤].

وفي هذا ما يفسر موقف الفقيه إسماعيل القاضي الذي بلغ رتبة الاجتهاد وفيه يقول الونشريسي ((ولكنه لم يتميز بمذهب خارج عن مذهب مالك ولا أقدم على استنباط حكم يخالف إحكامه، وكل ما ظهر له مما شذ فيه عن مذهب مالك تناولته بالإنكار أنظار العلماء وكرت عليه بالتوهين

---

(١) إرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ١/ ٢٥٥.

(٢) ترجم له التنبكتي: نيل الابتهاج، ١٧٩. الكتاني: سلوة الأنفاس، ٣/ ١٥٩.

(٣) ابن قنفذ: انس الفقير، ٣٤.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ٤٤٨.

والتضعيف حتى أتلفت وأذهبت أثره فلم يبق له رسم، إذ أن مهمة الفقيه، العارف الدين الغاضب أن يكون قد مارس اصطلاح الفقهاء بعض الممارسة ويكون عنده بعض دفاتر في الفقه ملقاة في خزانته، فإذا وردت النازلة عليه نظر في تلك الدفاتر، فإن وجد فيها نصاً في النازلة المذكورة أفتى به، وإن لم يجده بقي لا يجد جواباً))[1].

إن هذه الظاهرة التي طبعت الدراسات الفقهية وجدت من يسوغها بقوله: ((إن القوم كانوا أهل عمل ودين متين، وجري على سنن السلف الأقدمين الصالحين العاملين، فشغلهم ما أخذوا فيه من كد العمل، أثقال التقلل والمجاهدة وتحرى الحلال، والزهد والإقلال عن تتبع مواد التحقيق، إلى فقد الملكة النظرية من هذا القطر وانقراضها منه منذ زماننا إلى عصرنا هذا))[2] بينما يسوغ آخر كثرة المختصرات على هذا العهد بقوله: ((إياك أن تظن القصور بمن تصدى للتقليد على ((التهذيب)) من طلبة الشيخ أبي الحسن، وكذا من تلاهم من طلبة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجزولي، ويقرع سمعك ما أفتى به الشيوخ، ومن له في العلم الرسوخ، أن تقاليد ((التهذيب)) و((الرسالة)) لا يعول عليها في الإقراء ولا يوثق بشيء منها في الفتيا))[3].

وعلى أية حال. عرف العصر علماء اتخذوا موقفاً واضحاً من كتب الفقه وكان لهم رأي في الاعتماد على بعضها، قال أبو إسحاق الشاطبي: ((وأما ما ذكرت لكم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة، فلم يكن ذلك مني بحمد الله محض رأي ولكن اعتمدت بسبب الخبرة عند النظر في

---

(١) المعيار، ٢/ ١٧٠.

(٢) المقري: أزهار الرياض، ٣/ ٣١.

(٣) المقري: أزهار الرياض، ٣/ ٢٩.

كتب المتقدمين مع كتب المتأخرين، وأعني بالمتأخرين كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه، أوصاني بالتجافي عن كتب المتأخرين وأتى بعبارة خشنة في السمع، لكنها محض النصيحة.. والعبارة الخشنة... من شيخه أبي العباس أحمد القباب[١]، وهي أنه كان يقول في ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس: أفسدوا الفقه))[٢]، وأضاف القباب بعد انصرافه من تونس: ((علمتم ما تحصل بأيدينا من الفقه، وصح عندكم أن الملكة التامة في التحصيل والتصرف، إنما هي في قوى أهل تونس ومن يليهم من أهل المشرق، وأن قصارى ما عندنا وعند مشايخنا إنما هو حفظ النصوص، وإبقاؤها على ما هي عليه))[٣].

أما فيما يتعلق بظاهرة الاختصار على هذا العهد فيبدوا أنها كانت دلالة على مقدرة العالم، وأنها الطريقة التي تتناسب ومكانة العالم المريني قال ابن البناء العددي:

قصدت إلى الوجازة في كلامي
لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم أحذر فهو ما دون فهمي
ولكن خفت ازدراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأني
وشأن البسط تعليم الصغار[٤]

(١) ترجم له ابن الخطيب: الإحاطة، ١/١٨٧-١٨٨.
(٢) الونشريسي: المعيار، ١١/١٤١.
(٣) المقري: أزهار الرياض، ٣/ ٣٢. وللمزيد ينظر. الونشريسي: المعيار، ٢/ ٤٨٣.
(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ١٥٢.

ولم تكن ظاهرة الاختصار مقبولة لدى بعض العلماء، أمثال القباب (توفى ٧٧٨هـ-١٣٧٦م)[١] الذي اطلع على مختصر ابن عرفة[٢] (توفى ٨٠٣هـ-١٤٠٠م)، فقال له: ((ما صنعت شيئاً، فقال له ولم قال لأنه لا يفهمه المبتدئ ولا يحتاج إليه المنتهي... ويقال أن كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على بسط العبارة في أواخر المختصر ولين الاختصار))[٣].

وعلى أية حال فقد عرف هذا العهد الكثير من المصنفات الفقهية التي درسوها وتناولوها بالشرح والتعليق وهي:

■ **١ - المدونة:**

لسحنون (المتوفى ٢٤٠هـ-٨٥٤م) وتعد من أوائل المصنفات الفقهية، وأصلها الأول الأسدية لأسد بن الفرات (المتوفى ٢١٣هـ-٨٢٨م)، أخذها تلميذه سحنون ورحل بها إلى مصر[٤]، فعرضها على ابن القاسم العتقي (المتوفى ١٩١هـ-٨٠٦م) وأجرى عليها تعديلات ورتبها ثم عاد إلى القيروان، وسميت أيضاً المختلطة[٥]، وقد بلغ تقدير الناس لها حداً كبيراً، فمما روى عن بعض الشيوخ أنه قال: ((ما نزل من السماء

---

(١) الونشريسي: الوفيات، ١٢٨، وفي نيل الابتهاج، أنه مات سنة (٧٧٩هـ- ١٣٧٧م)، ١٧١.

(٢) ترجم له ابن مريم: البستان، ١٩٠-٢٠١.

(٣) التنبكتي: نيل الابتهاج، ١٧٣-١٧٤. المقري: أزهار الرياض، ٣/ ٣٧. للمزيد عن ذلك ينظر، الجيدي: دعوة نبذ المختصرات الفقهية في عهد الدولة العلوية، ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) عياض: ترتيب المدارك، ٣/ ٢٩٦.

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ٤٥.

حكم إلّا وهو في المدونة))[١]، وكان أبو حفص العطار يقول: ((ألقوا علي كل سؤال فأنا أخرجه من المدونة))[٢].

وقد أقبل علماء تلك الفترة على دراستها، وبرز العديد من العلماء الذين اشتهروا بتدريسها من أمثال عبد الرحمن بن عفان الجزولي (توفى ٧٤١هـ-١٣٤٠م) الذي قيل عن مجلسه بأنه كان يحضره ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة[٣]، والفقيه عبد المؤمن بن محمد الجاناتي (توفى٧٤٦هـ-١٣٤٥م)[٤]، والفقيه موسى بن محمد بن معطي السندروسي (توفى ٧٧٦هـ-١٣٧٤م) وقيل عنه إنه: ((أقرأها نحوا من أربعين سنة))[٥] والفقيه محمد بن علي بن سليمان السطي (توفى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م)[٦] وعبد العزيز بن محمد القوري (توفى ٧٥٠هـ-١٣٤٩م)[٧]، وإبراهيم التسولي (توفى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م)[٨].

أما الذين قاموا بشرحها والتقييد عليها في تلك الفترة من العلماء فهم محمد بن سليمان السطي[٩]، وموسى بن معطي العبدوسي الذي كتب

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ١٢٧.

(٢) الونشريسي: المعيار، ١/ ٣٢٣. الونشريسي: الوفيات، ١٢٧. ابن القاضي: لقط الفرائد، ٢١٦.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢/ ٤٠١. درة الحجال، ٣/ ٧٩. ابن القاضي: لقط الفرائد، ١٩٣.

(٤) ابن القاضي: درة الحجال، ٣/ ١٧٢-١٧٣.

(٥) الونشريسي: الوفيات، ١٢٧. مخلوف: شجرة النور، ٢٣٤-٢٣٥.

(٦) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ٢٢٨. درة الحجال، ٢/ ١٣٤-١٣٥.

(٧) التنبكتي: نيل الانتهاج، ٥٠١. مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٢١.

(٨) النباهي: المرقبة العليا، ١٣٦.

(٩) التنبكتي: نيل الابتهاج، ٧٤٠. ابن القاضي: لقط الفرائد. ٢٠١.

عليها تقييدين[١]، وعبد العزيز بن محمد القوري[٢]، وعلي بن سعيد الرجراجي[٣]، وإبراهيم التسولي التازي الذي كتب عليها تقييدين[٤] أيضاً.

■ ٢ - الرسالة:

وهي تلي المدونة في الأهمية لأبي محمد عبدالله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني (توفى٣٨٦هـ-٩٦٦م)[٥]، اهتم بها الفقهاء في سائر البلاد وقيل عنها: ((تنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب))[٦].

وتناولها علماء تلك الفترة دراسة وشرحاً، وكان من بين العلماء الذين اشتهروا بتدريسها الفقيه عبد الرحمن بن عفان الجزولي توفى (٧٤١هـ-١٣٤٠م)[٧] ومحمد بن عبد الرحمن التميمي الكرطوسي الفاسي[٨]، وإبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي[٩]، ويوسف بن عمر الأنفاسي توفى (٧٦١هـ-١٣٥٩م)[١٠].

---

(١) التنبكتي: نيل الابتهاج، ١٠٣٩.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢/ ٤٥١.

(٣) التنبكتي: نيل الابتهاج، ٦٠٥. ابن فرحون: الديباج المذهب، ١/ ١٤٢. مخلوف: شجرة النور الزكية، ١٨٧.

(٤) ابن فرحون: الديباج المذهب، ١/ ٢٧٢. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ٨٥.

(٥) ينظر ابن العماد: شذرات الذهب، ٣/ ١٣١. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ٤/ ٢٠٠. مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٢١.

(٦) سحنون: ابن أبي زيد القيرواني ورسالته، ٣/ ٥٢.

(٧) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ٢/ ٤٠١. مخلوف: شجرة النور، ٢١٨.

(٨) التنبكتي: نيل الابتهاج، ٥٢٣-٥٢٤.

(٩) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٣٧٢-٣٧٣.

(١٠) الونشريسي: الوفيات، ١٢٤. مخلوف: شجرة النور، ٢٣٣.

أما الذين تناولوها بالشرح والتقييد على تلك الفترة فهم الفقيه عبد الرحمن بن عفان الجزولي الذي جمع تقاييده بعض تلامذته عنها[(١)]، والفقيه يوسف بن عمر الأنفاسي[(٢)]، (توفى ٧٦١هـ-١٣٥٩م) وإبراهيم التسولي التازي[(٣)]، ومحمد بن عبد الرحمن الكرطوسي الذي كتب عنها تقييدين[(٤)]، وموسى بن محمد بن معطي العبدوسي[(٥)].

■ ٣ - التهذيب:

لأبي سعيد البراذعي[(٦)]، قال المقري: ((الكتاب المعتمد عليه الآن الذي يطلق عليه اسم الكتاب هو عند المالكية حتى بالإسكندرية))[(٧)]، وقد تناوله علماء ذلك العهد بالدراسة من أمثال عبد المؤمن بن محمد بن موسى الجاناتي (٧٤٦هـ-١٣٤٥م) الذي قيل أن مجلسه يحضره أكثر من أربعمائة فقيه[(٨)]، وكذلك الفقيه إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي والذي قيد عليه شرحاً[(٩)].

---

(١) التنبكتي: نيل الانتهاج، ٤٤٢. السوسي: علماء لامعون من سوس، ١١٥.

(٢) التنبكتي: نيل الابتهاج، ١٠٦٨. ابن مريم: البستان، ٢٩٩.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٣٨٠-٣٨١. ابن قنفذ: الوفيات، ٣٥٣.

(٤) ابن غازي: الروض الهتون، ١٨. البغدادي: هدية العارفين، ١/٥٠٢. كحالة: معجم المؤلفين، ٥/ ٩١.

(٥) التنبكتي: نيل الابتهاج، ١٠٣٩. مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٣٤-٢٣٥.

(٦) هو أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الازدي، ترجم له عياض: ترتيب المدارك، ٤/ ٨٠٧-٨٠٩. ابن فرحون: الديباج المذهب، ١/ ٣٤٩-٣٥١.

(٧) نفح الطيب، ٣/ ١٨٠.

(٨) التنبكتي: نيل الابتهاج، ٤٩٨. الونشريسي: الوفيات، ١١٥.

(٩) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١/ ٢٧١-٢٧٣. مخلوف: شجرة النور، ٢٢٠.

ولم تكن تلك المصنفات هي المعتمدة فقط في تلك الفترة بل درس الفقهاء قسماً آخر من المصنفات من بينها كتاب التفريع لابن الجلاب الذي اشتهر به أبو محمد عبدالله الفشتالي[(١)]، والفقيه محمد الرندي (توفى ٧٤٦هـ-١٣٤٥م) وقيد عليه شرحاً مفيداً[(٢)]، كما درسوا أيضاً المختصر الفقهي لأبي عمر ابن الحاجب وتداوله طلبة المغرب، قال ابن خلدون: ((وطلبة الفقه لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه)) وأشار في موضع أخر إلى مؤلفه بأنه ((لخص فيه طرق أهل المذاهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب))[(٣)]، واشتهر من بين العلماء بتدريسه عبد الحق بن سعيد المكناسي[(٤)]، (توفى٧٦١هـ-١٣٥٩م) ومحمد بن محمد بن أحمد القرشي[(٥)]، وقد علق عليه بعض العلماء بشروحات كما فعل العالم ابن مرزوق الخطيب وسمى شرحه: ((إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب))[(٦)] ومحمد بن يحيى بن مسفر الباهلي (توفى٧٤٤هـ-١٣٤٢م) الذي أملى عليه تقييداً عجيباً[(٧)] وعيسى بن مسعود الزواوي (توفى ٧٤٣هـ-١٣٤٣م) الذي كتب شرحاً عليه[(٨)].

وألف العديد من العلماء كتباً وشروحات على بعض المصنفات من أمثال الفقيه عبد الحق بن سعيد المكناسي الذي ألف على كتاب ابن العربي

---

(١) ابن القاضي: دوة الحجال، ٣/٧٩. مخلوف: شجرة النور، ٢١٨.
(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/٢٢٨.
(٣) المقدمة، ٤٥٠-٤٥١.
(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢/٣٨٩.
(٥) مخلوف: شجرة النور، ٢٣٢.
(٦) البغدادي: هدية العارفين، ٢/ ١٧٠.
(٧) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/٢٩٦. الونشريسي: الوفيات، ١١٣.
(٨) ابن القاضي: لقط الفرائد، ١٩٤. مخلوف: شجرة النور، ٢١٩.

المعروف بالحاكمة كتابا سماه ((الحازمة على الرسالة الحاكمة))[١]، بينما لخص محمد بن عبد الرحمن الكرطوسي تهذيب ابن بشير[٢]، أما التفريع لابن الجلاب فقد شرحه محمد الرندي[٣].

ولم تخل هذه الفترة من بعض المؤلفات التي ابتعدت عن سياق المنهج الذي اتبعه علماء تلك الفترة، فقد ألف محمد بن احمد الشريف الحسن (توفى٧٧١هـ-١٣٦٩م) كتاباً سماه ((المفتاح في أصول الفقه))[٤]، وقام عمران بن موسى المشذالي بتأليف رسالة في ((اتخاذ الركاب من خالص الفضة))[٥] وجمع إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي أجوبة شيخه التي شرحها فيما بعد إبراهيم بن هلال في كتاب سماه ((الدر النثير))[٦] كما اختصر عيسى بن مسعود الزواوي جامع ابن يونس[٧]، وألف المقري الجد كتاباً يشتمل على أكثر من مائة مسالة فقهية[٨].

وأخيراً فقد عرفت البلاد العديد من المصنفات الفقهية الأخرى من أمثال ((البيان والتحصيل)) و((المقدمات)) لابن رشد الجد (توفى ٥٢٠هـ-١١٢٦م)[٩]، وقد اشتهر بتدريسها على هذا العهد سليمان

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢/ ٣٨٩.

(٢) مخلوف: شجرة النور، ٢٢٠.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١/ ٢٢٨.

(٤) ابن مريم: البستان، ١٦٦. مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٣٤.

(٥) ابن خلدون: بغية الرواد، ١/ ٧٢.

(٦) مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٢٠.

(٧) مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢١٩.

(٨) ابن فرحون: الديباج المذهب، ٢/ ٢٦٥.

(٩) ابن خلدون: المقدمة، ٤٥٠. بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ٤٢٧.

الونشريسي (توفى ٧٠٥هـ-١٣٠٥م) الذي درسها على يديه أبو عبدالله الرندي[١]، كما درسوا أيضاً كتاب التهذيب لابن بشير[٢].

كما غاب العديد من المصنفات الفقهية التي لم تكن تلقى استجابة من قبل فقهاء ذلك العهد ولعل في موقف الفقيه القباب[٣]، ما يفسر ذلك حيث كان يقول أن بعض المتأخرين أمثال ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس قد أفسدوا الفقه، وطبيعي فإن هذا الموقف الذي يصدر عن شخصية مثل القباب جدير بالالتزام، ففيه حث العلماء وطالبي العلم بالكف عن قراءة تلك الكتب وتركها.

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢/ ٥١٦-٥١٧. درة الحجال، ٣/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) (١٠٤)مخلوف: شجرة النور الزكية، ٢٢٠.

(٣) ترجم له: ابن فرحون: الديباج المذهب، ١/ ٧٢-٧٣. ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ١٩٣-١٩٥. ابن حجر: الدرر الكامنة، ١/ ١٥٠-١٥١.

جهود فلاسفة المغرب الإسلامي
في دراسة ونشر التراث الفلسفي
أبو الوليد بن رشد (٥٢٠هـ-٥٩٥هـ/١١٢٦-١١٩٨م)
- نموذجاً -

شهد المغرب الإسلامي - المغرب العربي والأندلس - نهضة فكرية شاملة وعلى وجه الخصوص في ظل دولة الموحدين على عهد الخليفة أبي يعقوب بن يوسف المنصور الموحدي (٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٦٢-١١٨٤م) الذي أبدى هو وأبوه اهتماماً بالعلم والعلماء، وجمع حوله الصفوة منهم، فعقد المجالس العلمية، واستمع إلى آرائهم وأفكارهم، وقد وصفه المراكشي قائلاً: «طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تلكمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية والياً عليها في حياة أبيه، ولقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن... فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه... وصح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو.... ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها.. فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»[1].

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة احياء التراث (القاهرة - ١٩٦٣) ص ٣٠٩.

وبفضل هذا الاهتمام ظهر ابن باجه (ت٥٣٣هـ-١١٣٨م) وابن طفيل (ت٥٨١هـ-١١٨٥م)و أبو الوليد بن رشد الحفيد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٥م) ومع كل هذا الاهتمام فقد تعرض الفلاسفة إلى مواقف قاسية من قبله، لكنه سرعان ما تراجع عنها وأعادهم إلى ما كانوا عليه من رعاية ودعم[١].

ويقف أبو الوليد بن رشد شاهداً على عطاء الفلاسفة وإثرائهم للتراث الإنساني، فعطاؤهم لم يقف عند حدود بلدانهم، بل تجاوز ذلك إلى مختلف البلدان، كما أنهم لم يكتفوا بما ألفوه بل وقفوا موقف الناقد الشارح لما وجدوه من تراث الأمم فأضافوا وابتكروا وقدموا للأمم الغربية تراث من سبقهم ولولا جهود الفلاسفة المسلمين لما رأت تلك المؤلفات النور، وسيسعى البحث إلى دراسة شخصية أبي الوليد بن رشد في دراسة ونشر التراث الفلسفي القديم.

حياة أبي الوليد ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن عبدالله بن رشد الحفيد من أهل قرطبة، ولد بها سنة (٥٢٦هـ-١١٢٦م)، وتوفي بمراكش ليلة الخميس التاسع من صفر سنة (٥٩٥هـ-١١٩٨م)، ودفن بجبانة باب تاغزوت خارجها ثلاثة أشهر، ثم حمل إلى قرطبة فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس[٢].

ينحدر من أسرة عريقة بقرطبة، فجده القاضي محمد بن رشد وهو

---

(١) ملين - عصر النهضة الموحدي، مطبعة الشمال الافريقي (الرباط:دت): ٢٢٥-٢٢٨.

(٢) ابن عبد الملك المراكشي - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق د. احسان عباس، نشر دار الثقافة (بيروت: ١٩٧٣): ٦/ ٢١-٣١.

من القضاة المشهورين صاحب «كتاب البيان والتحصيل»[١]، أما والده فقد كان من أهل العلم والجلالة والعدالة[٢] وكان قاضياً أخذ عن أبيه ولازمه طويلاً وصفه ابن بشكوال قائلاً: «كان خيراً فاضلاً عاقلاً ظهر بنفسه وبأبوته محبباً إلى الناس»[٣].

سمع الحديث عن أبيه، وأبي القاسم ابن بشكوال وأبي جعفر بن عبد العزيز وأبي الفضل عياض وأبي مروان بن مسره وأخذ العربية عن أبي بكر بن سمحون، والطب عن أبي مروان بن جريول البلنسي، ولقي جماعة وافرة من العلماء، أخذ عنهم وأجازه البعض منهم[٤].

برع أبو الوليد بن رشد في علوم الفلسفة والطب واكتسب حظاً وافراً من علوم العربية، وكان كثيراً ما يستشهد بشعر حبيب والمتنبي، واستقضى بإشبيلية، ثم بقرطبة، فنظر حينئذ في الفقه وصنف فيه، كتابه المسى «بداية المجتهد وكفاية المقتصد»[٥].

وحظي خلال إقامته بإشبيلية بفرصة استماع شيخه الأستاذ الطبيب الماهر عبد الملك بن زهر الحفيد الذي وصفه بأنه «أعظم طبيب بعد جالينوس»[٦].

---

(١) ابن فرحون - الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، تحقيق مامون بن محي الدين الجنان، نشر دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٦): ١١١، الضبي - بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس دار الكاتب العربي (القاهرة:١٩٦٧): ٥١.

(٢) المصدر نفسه: ١١١.

(٣) كتاب الصلة، سلسلة المكتبة الاندلسية، (٤) ١٩٦٦: ٨٣.

(٤) ابن عبدالله المراكشي - المصدر السابق: ٦/ ٢٢.

(٥) المصدر نفسه: ٦/ ٢٢.

(٦) المراكشي - المصدر السابق: ٣٥٣.

أما علاقته بخلفاء الدولة الموحدية، فقد بدأت أولى ملامحها منذ أن تولى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ولاية إشبلية في سنة (٥٤٩هـ-١١٥٤م) وقد توطدت علاقته مع يوسف بن عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة فاستدعى أبا الوليد بن رشد إلى سكنى قرطبة، واستمر حاله مع الخليفة الجديد يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور الذي أبقاه طبيباً خاصاً له كما كان حاله على عهد ابيه من قبل[(١)].

لم يدم الحال كما كان، فقد كثر حساده، ونشأ بينه وبين البعض من أهالي قرطبة خلافات أسبابها المحاسدة يقول ابن عبد الملك المراكشي: «فانتدب الطالبون لنفي أشياء عليه في مصنفاته تاولوا الخروج فيها عن سنن الشريعة، وإيثاره لحكم الطبيعية، وحشروا فيها ألفاظاً عديدة، وفصولاً ربما كانت غير سديدة، وجمعت في أوراق، وقيل إن بعضها ألفي بخطه، ومشى رافعوها إلى حضرة مراكش سنة تسعين، فشغل عن الالتفات إليها والوقوف عليها ما كانت الحال بسبيله من الاستعداد، والنظر في مهمات الجهاد، فنكص الطالبون على أعقابهم لكن ما إن وصل المنصور إلى الأندلس وأقام بقرطبة مدة طويلة، حتى تجددت رغبة خصوم ابن رشد في النيل منه، فرفعوا شكايتهم مرة ثانية، فقرئت بمجلس الخليفة المنصور وبحضور طلبة مجلسه وفقهاء دولته، وأدلى الكثيرون بدلوهم بشأن ما جاء من التهم الموجهة إلى ابن رشد، فانتهى قرار الخليفة بنفيه إلى اليسانه، ونفي تلاميذه بمدن الأندلس بعيداً عن أستاذهم»[(٢)].

---

(١) ابن أبي زرع - الانيس المطرب - بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر دار المنصور للطبعة والوراقة (الرباط: ١٩٧٣) ١٩٥، ٢٠٧، ٢١٦.

(٢) الذيل والتكملة: ٢٥-٢٦.

ولم ينته الأمر عند حدود النفي بل انبرى بعض الشعراء في محاربة الفلسفة وتعنيف أهلها ومن ذلك ما قاله الحاج أبو حسين ابن جبير في ابن رشد:-

الآن قد أيقن ابن رشد

إن تواليفه توالف

يا ظالماً نفسه تأمل

هل تجد اليوم من يوالف

وقال أيضاً:-

لم تلزم الرشد يابن رشد

لما علا في الزمان جدك

وكنت في الدين ذا رياء

ما هكذا كان في جدك

وزيادة على ذلك فقد رفعت قصائد إلى الخليفة تمدحه وتذكر دوره في الحد من هذه الفئة ومنها قصيدة الحاج ابن جبير:-

بلغت أمير المؤمنين مدى المنى

لأنك قد بلغتنا ما نؤمل

قصدت إلى الإسلام تعلى مناره

ومقصدك الأسنى لدى الله يقبل

تــدار كــت ديــن الله فــي أخــذ فــرقــة
بــمــنــطــقــهــم كــان الــبــلاء الــمــوكــل
أثــاروا عــلــى الــديــن الــحــنــيــفــي فــتــنــة
لــهــا نــار غــيّ فــي الــعــقــائــد تــشــعــل
اقــمــتــهــم لــلــنــاس يــبــرا مــنــهــم
ووجــه الــهــدى مــن خــزيــهــم يــتــهــلــل
وقــد كــان لــلــســيــف اشــتــيــاق إلــيــهــم
ولــكــن مــقــام الــخــزي لــلــنــفــس اقــتــل
وآثــرت درء الــحــد عــنــهــم لــشــبــهــة
لــظــاهــر إســلام وحــكــمــك أعــدل[١]

وزيادة على ذلك فقد واجه ابن رشد سخط العامة عليه حيث قال: وأعظم ما طرأ عليّ في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبدالله مسجداً بقرطبة، وقد حانت صلاة العصر فثار لنا بعض فأخرجونا منه[٢].

وزاد الأمر قسوة ذلك المنشور الذي كتبه الكاتب أبو عبدالله بن عياش بامر المنصور إذ يشير إلى ما حدث لابن رشد في هذه القضية ويعمم إلى مراكش وغيرها من المدن ومما قال فيه: «فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه وإليها يكون مآل

(١) ابن عبد الملك المراكشي – المصدر اسابق: ٦/ ٣٠-٣١.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢٦.

مؤلفه ومآبه ومتى عثر منهم على مجد في غلوانه عم عن سبيل استقامته واهتدائه فليعاجل فيه بالتثقيف والتعنيف ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»(١).

بقي أبو الوليد بن رشد في منفاه مدة ثلاث سنوات ثم عفا عنه الخليفة المنصور واستدعاه إلى مراكش، ورده إلى سابق منزلته لكنه لم يمكث بها إلّا شهوراً حيث أدركته منيته وهو في الخامسة والسبعين من عمره(٢).

■ مؤلفاته:

على الرغم من الوظائف التي أنيطت به، والمحن التي تعرض لها فقد كان أشد الناس حرصاً على العلم، فقد «عني بالعلم من صغره إلى كبره، حتى حكي أنه لم يدع النظر ولا القراءة مذ عقل إلّا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله وأنه سود - فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر - نحواً من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الأوائل، وكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره»(٣).

ولقد أحصى ابن عبد الملك المركشي مصنفاته الفلسفية والطبية والفقهية والتي بلغت نحو (٨٤) مصنفاً ما بين كتاب ومقالة وشرح وتعليق(٤)، ولاناتي بجديد إن قمنا بسردها إلّا أننا سنذكر أبرزها، كما

---

(١) محمد لطفي جمعه - تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب (القاهرة - ١٩٢٧) ١٤٤- ١٤٥.

(٢) المراكشي- المصدر السابق: ٤٣٥، ابن عبد الملك المراكشي - المصدر السابق: ٦/ ٣١.

(٣) ابن فرحون - المصدر السابق: ٣٧٩.

(٤) الذيل والتكملة: المصدر السابق: ٦/ ٢٣-٢٤.

وردت عند الأخير ومن تآليفه في الطب كتاب الكليات وقد أجاد في تأليفه وقد قصد من تأليفه أن يؤلف لأبي مروان بن زهير الذي تربطه معه مودة كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب ولذلك يقول ابن رشد في آخر كتابه ما نصه: «فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عرض من الأعراض الداخلة على عضو من الأعضاء»[1]، ومن مصنفاته الأخرى شرح كتاب النفس لأرسطو طاليس وتلخيص كتاب المزاج لجالينوس وتلخيص كتاب القوى الطبعية لجالينوس وتلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس وتلخيص كتاب التعريف لجالينوس وتلخيص كتاب الحميات لجالينوس وتلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وتلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس، ومراجعات ومباحث بين أبي بكر ابن طفيل وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتابه الموسوم بالكليات، وكتاب في الفحص عن مسائل وقعت في العلم الإلهي في كتاب الشفاء لابن سيناء، ومقالة في الرد على ابن سينا في تقسيمه الموجودات إلى ممكن على الإطلاق وممكن بذاته واجب بغيره، وإلى واجب بذاته ومقالة في المزاج، ومسألة في نوائب الحمى ومقالة في حميات العفن ومقالة في الترياق[2].

أما مؤلفاته الفقهية فمنها «مناهج الأدلة في أصول الدين، وفصل المقال ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ومختصر المستصفى»[3] وأهمها كتابه المسمى بداية المجتهد وكفاية المقتصد «ذكر فيه أسباب

(١) ابن أبي اصيبعة- عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت، ١٣٧٦هـ): ٢/ ٧٥.

(٢) ابن أبي اصيبعه، المصدر السابق: ٢/ ٧٥.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي - المصدر السابق: ٦/ ٢٣.

الخلاف، وعلل ووجه فأفاد وأمتع به ولا يعلم في وقته أنفع منه ولا أحسن سياقاً»[١].

أما مؤلفاته الفلسفية فقد أحصى محمد لطفي[٢] جمعه مؤلفاته الفلسفية، وقد وضع هذا الجدول على سبيل الحصر وليس لابن رشد غير هذه الكتب في الفلسفة على حد زعمه قائلاً «ولا يجوز الزيادة عليها أو إنقاصها ولا يعول على قول أحد في المؤلفات إذا خالف هذا الجدول الدقيق وهي تهافت التهافت ورسالة في تركيب الإجرام وهو جملة مقالات والكتاب منتشر باللاتيني والعبراني وكتابان في الاتصال يوجدان باللاتينية والعبرية وأربعة كتب في مسألة هل العقل المادي يمكنه إدراك الصور المنفصلة وشرح كلام ابن باجه في اتصال العقل المنفصل بالإنسان وكتاب الكون وفي المقالات الشرطية والضروري في المنطق ومختصر المنطق ومقدمة الفلسفة في اثني عشر رسالة توجد بالاسكوريال «عدد ٦٢٩» وشرح جمهورية أفلاطون وشرح الفارابي وأرسطو في المنطق وشروح على الفارابي في مختلف المسائل ونقد الفارابي في التحليلات الثاني لأرسطو وشروح على الفارابي في مختلف المسائل ونقد الفارابي في التحليلات الثاني لأرسطو ورد على ابن سينا في تقسيم المخلوقات وقوله إنها ممكنة مطلقاً وممكنة بذاتها ولازمه بما هو خارج عنها ولازمه بذاتها وشرح وسط لما بعد الطبيعية عن ترجمة نيقولا الدمشقي وفي علم الله بالجزئيات ووفي الوجودين الأزلي والوقتي وفي البحث فيما ورد في كتاب الشفاء عما وراء الطبيعة وفي المادة الأولى وفي الزمان ومسائل في الفلسفة وفي العقل

(١) ابن فرحون – المصدر السابق: ٣٧٩.

(٢) محمد لطفي جمعه – تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، دار مكتبة الهلال (بيروت: دت) ١٤٩-١٥٠.

وأسئلة وأجوبة في النفس وأسئلة وأجوبة في علم النفس وفي السماء والدنيا»[١].

■ دراسة ابن رشد للتراث الفلسفي القديم:

ترجع بدايات جهوده في دراسة وشرح التراث الفلسفي القديمَ إلى رغبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى تعلم الفلسفة، إذ جمع كثيراً من كتبها وقرب العلماء المهتمين بها، وقد بلغ حبه لها أنه أخذ الكتب من بيوت أربابها وحملها إليه مع مكافأة أهلها كما حدث ذلك مع أبي الحجاج يوسف المراني فإنه بعد أن صادر كتبه ولاه ولاية حسنة، وزيادة على ذلك فقد لعب أبو بكر محمد بن طفيل دوراً عظيماً في تقريب الفلاسفة إليه والتنبيه عليهم وجمعهم من جميع البلدان، وحض الخليفة على إكرامهم وهو الذي نبهه على الكثيرين ومنهم أبو الوليد بن رشد.

وكان من أول مجلس انعقد بين ابن رشد الحفيد وبين الخليفة أبي يعقوب قد رواه تلميذه الأستاذ الفقيه أبو بكر بندود بن يحيى القرطبي قال: «سمعت الحكيم ابا الوليد يقول غير مرة: لما دخلت على أمير المؤمنين وجدته هوو أبو بكر بن طفيل... فاخذ أبو بكر يثنى عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله إلى ذلك اشياء لايبلغها قدري، فكان أول مافاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سالني عن اسمي واسم أبي ونسبي إن قال لي: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة أقديمة هي أم حادثة؟» فأدركنى الحياء والخوف فاخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها،ويذكر ما قاله

---

(١) المراكشي - المصدر السابق: ١٢١-١٢٩.

أرسطوطاليس وافلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرايت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ومركب[١].

ثم تطور الحال، اذ استدعى أبو بكر ابن طفيل ابا الوليد بن رشد فقال له: «سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة ارسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه، ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد ان يفهمها فهما جيداً لقرب ما خذها على الناس، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، واني لارجو ان تفي به لما اعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو اهم عندي منه، قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب أرسطوطاليس[٢]».

يقول المراكشي: «قد رأيت لأبي الوليد هذا تلخيصه كتب الحكيم في جزء واحد من مائة وخمسين ورقة، ترجمه بكتاب الجوامع، لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الاثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس، ثم لخصها بعد ذلك وشرح اغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء[٣].

ترك ابن رشد ثلاثة شروح على كتب ارسطو: شرح صغير ووسط

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٩-١٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٠-١٣١.

وكبير، فاما شروحه الصغرى فتوجد بالعربية في مدريد باسم كتاب جوامع ارسطوطاليس وتشتمل على شرح كتب أرسطو الطبيعات، السماء والعالم الكون والفساد، الاثار العلوية، النفس، وبعض مسائل فيما بعد الطبيعة[١]، وشرحه الصغير كما يرى أحد الباحثين: «عبارة عن تحليل وجيز وهو من قبيل نثر المنظوم فالمتكلم فيه ابن رشد ذاته ويسير فيه على الطريق التي ترضيه في الاقتباس والاستشهاد والناظر في هذا الشرح يعتقد انه تفسير قائم بذاته»[٢]، أما الشرح الوسط فيقتبس الكلمات الاولى من متن ارسطو ثم يسير على طريقة الفارابي، أاما الكبير فاقتباس لكل نبذة من ارسطو مع تحديدها بقوله «قال أرسطو» ثم يتناول ذلك الشرح بالاسهاب والتعميق والاستطراد، ويميل أحد الباحثين إلى أن الشرح الكبير قد أتمه في الستين من عمره، إذا أشار ابن رشد إلى شرح اوجز منه صنفه في مقتبل العمر، وكذلك ما قطعه على نفسه من عهد في الشرح الأوسط بوضع شرح أكبر[٣]، لكن ابن رشد في هذه الشروح الثلاثة قد بث أراه الشخصية لاوياعنان فلسفة ارسطو إلى مايرى ويعتقد، ومتخذاً شرحها سبيلاً لبيان مذهبه هو، غير مقيد في ذلك بفهم الشراح السابقين من اليونانيين والإسلاميين، ومن هنا التقى مع شراح أرسطو كالاسكندر الافردوديسي، وثامسطيوس ونيقولا الدمشقي وفرفريوس الصوري، فكان يصوب آراءهم حيناً ويخطئ الآخر، حسبما يقتضيه تفكيره وفهمه الخاص لآرائه ونظرياته، كما يتبين من رأيه في العقل الذي يقرر فيه أنه

(١) محمد المنوني - العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين، نشر مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط٢ (الرباط - ١٩٧٧): ٩٩-١٠٠.

(٢) جمعه - المرجع السابق: ١٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ١٥٥-١٥٦.

وحده الذي استخرج ارسطو على حقيقته كما يتضح ذلك في شرحه لكتاب النفس لأرسطو [١].

■ انتقال أعمال ابن رشد إلى المغرب

إنتقلت الثقافة الإسلامية بمعارفها المختلفة إلى الغرب عن طريقين الاتصال الشخصي والترجمة إلى اللاتينية، وقد نشطت حركة الترجمة الحقيقية في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد، حيث نظمت وسائلها، وركزت في بيئات خاصة، واختلطت بها جماعات معينه بدى بالترجمة عن العربية، وانشئت معاهد لتعليم اللغات العربية والعبرية واليونانية،ومنها مدرسة طليطلة التي تخرج منها في القرن الثاث عشر للميلاد ريمون مارثان الدومنكاني الذي كان على اتصال وثيق بالقديس توما الاكويني، كما لعبت بلرمو عاصمة صقلية دوراً في حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الامبراطور فردريك الثاني الذي أراد أن ينشر الحكمة اليونانية والعلوم الفلسفية وكان على صلة بالحكام المسلمين، ولعله حصل على كتب ابن رشد جميعها، ولما يمضي على موته ربع قرن، إذ دعا كبار المترجمين وفي مقدمتهم ميشيل سكوت (ت ١٢٣٥م) الشخصية المملوءه نشاطا وحركة، والتي يعزى اليها عدد غير قليل من المترجمات، اذ كان يوزع اعماله على عدد من تلاميذه واعوانه ثم يتابع نشاطهم ويراجع أعمالهم [٢].

---

(١) محمد بيصار - في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، نشر دار الكتاب اللبناني، ط٣(بيروت: ١٩٧٣): ٥٦.

(٢) إبراهيم بيومي مدكور- في الفلسفة، منشور ضمن كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية، باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)نشر الهيئة المصرية للتاليف والنشر (القاهرة: ١٩٧٠) ١٦٢-١٦٧.

أن ماترجم من مؤلفات المسلمين الفلسفية قد تاخر مقارنة مع العلوم الأخرى، فقد عرف الغرب شخصية الكندي، وقد غلب علمه على فلسفته عندهم ولم يترجم من كتبه الفلسفية إلا اربع رسائل صغيرة هي العقل وماهية النوم والرؤيا والجواهر الخمسة والبرهان المنطقي، وكذلك الفارابي الذي كانت صورته اوضح وان لم يترجم من كتبه الفلسفية الا اثنان احصاء العلوم الذي ترجم مرتين في القرن الثاني عشر على ايدي جند سالينوس وجيرار الكريموني، والثاني مقالة في العقل، ومع ذلك فقد كان كبار مفكري القرن الثاث عشر من المسيحيين قد عرفوه واشاروا اليه من امثال البير الكبير وروجر بيكون، كما عنى الغرب بتلميذه ابن سينا عناية كبيرة واهتموا بموسوعته الفلسفية فترجموها على مرحلتين، مرحلة مبكرة في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة - الثاني عشر للميلاد ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة، فترجموا أولاً من قسم منطق الشفاء «المدخل» وفصلاً من التحاليل الثانية ومن قسم الطبيعيات الكتاب الاول والثاني والسادس، وهو كتاب النفس وقسم الالهيات باسرها ثم اتموا في المرحلة الثانية بقية قسم الطبيعات [(١)].

أما الغزالي فمن كتبه التي ترجمت في عهد مبكر كتاب مقاصد الفلاسفة على ايدي جند سالينوس وهو عرض واضح لفلسفة ابن سينا، اما كتابه تهافت الفلاسفة فلم يترجم إلى اللاتينية الا في اخريات القرن التاسع للهجرة - الخامس عشر للميلاد، ولا نستبعد أن يكون التهافت بعيداً عن القديس توما الا كويني اذ افاد منه في كتابه «الخلاصة» في الرد على الامم، كذلك فقد عرف الغرب ابن باجة أول فلاسفة الأندلس الكبار وقد استوقفهم رسالته في الاتصال التي اشار اليها البير الكبير والتي تعالج

(١) المرجع نفسه: ١٦٨-١٧١.

مشكلة المعرفة التي شغلت مفكري القرون الوسطى عامة، ولم تصلهم رسالته «تدبير المتوحد» برغم طرافتها وترجمتها إلى العبرية في القرن الثامن للهجرة - الرابع عشر للميلاد، كما لم يكن حظ ابن طفيل باعظم من حظ ابن باجة فقد عرفوه معرفة عابرة ولم يعنوا برسالته حي بن يقظان التي تعد احدى روائع القصص الفلسفي، ولم تترجم إلى اللاتينية الا في القرن السابع عشر[١].

والحق ان ابن رشد كان أكبر فلاسفة الإسلام حظا في الترجمة إلى اللاتينية، فقد ترجمت شروحه في صورها المختلفة من صغيرة وكبيرة وتلخيصات وبلغ عددها ٣٨ شرحاً وقد ترجمت مرتين: أولاهما في القرن السابع للهجرة - الثالث عشر للميلاد وعول فيها على الاصول العربية وثانيهما: في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد وقامت كلها على العبرية خاصة، كما ترجم له كتاب تهافت التهافت إلى اللاتينية في القرن الثامن للهجرة - الرابع عشر للميلاد عن اصل عربي مرة وعبري مرة أخرى، وقد تمت ترجمته في بلاط فردريك الثاني وتحت إشراف مترجمه الأول ميشيل اسكوت وقد سعى إلى نشره في الهيئات العلمية الأوربية، ومما يؤسف له إنا لم نقف بعد على كثير من شروح ابن رشد في أصولها العربية، ومصدرنا الوحيد فيها حتى الآن ترجمتها اللاتينية أو العبرية، وقد نشرت شروحه اللاتينية غير مرة كاملة أو مجزاة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، واكمل نشر لها هو ذلك الذي يحمل اسم دار النشر الكبرى في القرن العاشر للهجرة - السادس عشر للميلاد «الجونث» وفي المكتبات الاوربية الكبيرة بقايا وفيرة من هذه الشروح وبخاصة «دار الكتب الأهلية» بباريس وبهذه الترجمة الفضل لابن رشد في التعريف بارسطو اذ

(١) المرجع نفسه: ١٧٢-١٧٣.

لم يكونوا من مؤلفاته حتى أخريات القرن السادس للهجره - الثاني عشر للميلاد إلا بعض كتبه المنطقية وكان لهذا أثره في النهضة الأوربية[١].

لقد أثرت جهود الفلاسفة المسلمين في الغرب تاثيراً واضحاً إذ لانكاد نجد أحداً من كبار القرن السابع للهجرة - الثالث عشر للميلاد الاوله صله بابن سينا أو بابن رشد أو بهما حصراً، فهذا سيجر البربنتى (ت ١٢٨١ م) يتعصب لابن رشد وذاك روجر بيكون يفضل عليه ابن سينا، وفي فلسفة توما الاكويني جوانب سينويه وأخرى رشديه، وإذا كانت المدرسة الفرنسانيه ذات اتجاه سينوي فان المدرسة الدومنكانية لم تخل من آثار رشديه وان عارضت ابن رشد، واستصدرت قرارات كنسيه بتحريم كتبه، إذ أن رئيسها توما الاكويني أقرب إلى ابن رشد من ابن سينا، ولاتظن أحداً في آخريات القرن السابع للهجرة وأوائل القرن الثامن للهجره - الثالث عشر أحداً واوائل الرابع عشر للميلاد عارض ابن رشد معارضة جيل دي روم (ت ١٣١٦ م) وريمون لول ومع ذلك لم يسلما من تأثيرات الفلسفة الإسلامية عليهما، ومن جانب آخر فيكاد يكون النشاط الفلسفي للجامعات الاوربية في القرن السابع للهجرة - الثالث عشر للميلاد يدور حول ارسطو وشارحيه ابن سينا وابن رشد، كما لاتخلو هذه الجامعات الناشئه من اثر عربي، اذ ان نشاتها تكاد تشبه المعاهد الدينية كجامع القرويين والأزهر[٢]، وقطعاً أن صلة بعض الشخصيات كفرودريك الثاني صاحب صقلية المتحمس إلى إنشاء الجامعات الاوربية كانت معروفة، وبين ايدينا اسئلته التي بعثها إلى علماء المسلمين وتصدى للاجابة عنها من

---

(١) المرجع نفسه: ١٧٣.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٦-١٧٧.

سبتة العالم عبد الحق بن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ-١٢٧٠م كما يقول ابن الخطيب فكتب في ذلك رسالة ما زالت تعرف بالاجوبة على المسائل الصقلية[١]، وهي اربعة اسئلة نقلا عن اجابات ابن سبعين التي اشتملت على ٤٩ صفحة وتوجد منها نسخة بخطه في أكسفورد[٢].

لقد عكست تلك الأسئلة الصقلية وغيرها أمثلة عن تلاقي الفكر الغربي مع الفكر العربي واخذه عنه إلى احد ان الجامعات الاوربية شغلت بابن سينا وابن رشد بدرجة لا تقل عن اشتغالها بأرسطو، ويكفي أن يعود المرء إلى ماقدمه ارنست رينان عن تاريخ الرشدية في اوربا، وامتد هذا التلاقي إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين- الرابع والخامس عشر الميلاديين الذين اخذ فيهما ابن رشد مساحة اوسع، بحيث ظهر اثره واضحاً في فن التصوير الايطالي في تلك الحقبة، بل أن اتباعه استطاعوا أن يقودوا حركة فكرية في بيئات مختلفة وخاصة في جامعات شمال ايطاليا، وها دانتي يضع ابن رشد إلى جانب ابن سينا وجالينوس، كما ان لويس الحادي عشر لما اراد ان ينظم سنة ١٤٣٧ م، التعليم الفلسفي اوصى بمذهب ارسطو وشارحه ابن رشد المعروف بصدقه وسلامته، ومن جانب اخر فقد كانت جامعة بادوا القلعة الكبرى التي عمر بها المذهب الرشدي حتى القرن الحادي عشر للهجرة - السابع عشر للميلاد، وصححوا تلامذتها بعضاً مما نسب إليه من اخطاء، ودافعواعنه بقوة، وفي مقدمتهم بومبو نتزي (ت ١٥٢٥م) الذي نصره على الاسكندر الافروديسي، كما تابعت الجامعات الايطالية الاخرى كالبندقية وبولونيا

---

(١) المقرى- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، نشر دار صادر (بيروت: ١٩٩٧): ٢/ ٢٠٤.

(٢) بالنثيا - انخل جنثالث -تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د.حسين مؤنس، نشر مكتبة النهضة العربية، ط١(القاهرة -١٩٥٥): ٣٨٨ -٣٨٩.

تلك الحركة الرشدية في تنشيط العلوم التجريبية اذ كان جل انصاره منهم من الاطباء والفلكيين[١].

ولابن رشد فضله على روجر بيكون الفيلسوف الشهير وقد وضح تاثيره عليه من خلال الإشارات التي جاءت بكتابه اللاتيني «أبوس ماجوس» إذ أثنى عليه وعلى مواهبه وسعة علمه وقال: «إنه فليسوف متين متعمق صحح كثيراً من أغلاط الفكر الإنساني وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها، وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوماً لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التي تناولها في بحثه»[٢].

وعلى الرغم من ذلك الاهتمام الذي ابداه علماء أوروبا، لكنه لم ينجح هو واتباعه من السنة رجال الكنيسة، وممن تعذب في سبيل ابن رشد الكاهن الهولندي هرمان فان ريزويك الذي أحرق بتهمة الهرطقة في لاهاي في ١٤ ديسمبر ١٥١٢ م وقد قال في ذلك اليوم جملته المشهورة: «إن أعلم العلماء أرسطو وشارحه ابن رشد وهما أقرب إلى الحقيقة، بهما اهتديت وبفضلهما رأيت النور الذي كنت عنه عمياً»[٣].

---

(١) مدكور - المرجع نفسه: ١٨٧-١٨٨.

(٢) جمعه - المرجع السابق: ٢٢٣.

(٣) المرجع نفسه: ٢٢٣-٢٢٤.

جوانب حضارية من تاريخ مدينة ندرومه

- العصر الزياني -

يهدف هذا البحث بالدرجة الأولى إلى اعتماد المصادر الأولية في دراسة مدينة ندرومه، فيتناول جغرافيتها، والروايات التاريخية التي تعرضت لها، ودورها في الحياة العلمية في العصر الزياني كما يتعرض إلى بعض المظاهر الحضارية التي وردت في المصادر التاريخية.

أولا: الخصائص الجغرافية ••••••••••••••••••••••••••

يتفق معظم من كتب عن مدينة ندرومه من المؤرخين والجغرافيين العرب، على أنها مدنية قديمة، وأنها تعود بجذورها التاريخية إلى عصور سحيقة، ولكنهم يختلفون في أي عصر قد شيدت، فيذكر الحسن الوزان أنها (بنيت في العصور القديمة على يد الرومان، وقد شيدوها فوق رقعة كبيرة في سهل على مسافة ميلين من الجبل واثني عشر ميلاً من البحر المتوسط، ويمر بجوارها نهر) أما اسمها ندرومة، فيذكر (أن الرومان بنوها في نفس الموقع وحسب نفس مخطط مدينة روما ومن هنا جاء اسمها لان (ند) في اللغة الأفريقية له نفس كلمة سيميليس من اللاتينية[1]،

(١) وصف أفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، ومراجعة علي عبدا لواحد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض، ١٩٧٩): ٣٨٤.

والواقع أن (ند) لها معنى كلمة (مماثلة) في العربية، فقد ذكر الحسن الوزان مكانتها الاقتصادية فقال: ((وأريافها منتجة للغاية، وتظهر حول ندرومة بساتين عديدة وأراضي مزروعة بالخروب الذي يأكل الناس كثيرا منه، ... وند رومه مزدهرة لان الصناع كثيرون فيها، وتصنع فيها على الخصوص أقمشة القطن))[١].

أما اسمها فهو مأخوذ من قبيلة كومية استقرت فيها وهي ندرومة يقول أبو بكر بن علي الصهناجي المكنى بالبيذق: ((كوميه... لهم من الأفخاذ خمسة وعشرون من ذلك... أهل القرية ندرومه..))[٢]، ويضيف ابن خلدون في معرض حديثه عن كوميه قوله: ((كانوا قديماً يعرفون بصطفورة أو صدفورة ولهم ثلاثة بطون منها تفرعت قبائلهم وبطونهم: ندرومة وصغاره وبني يلول.

وكانت مواطن كوميه بالمغرب الأوسط لسيف البحر من ناحية ارشكول وتلمسان، ((وكان لهم كثرة موفورة وشوكة موهوبة وصاروا من أعظم قبائل الموحدين))[٣].

وأما مدينة ندرومه فقد ذكر البكري موقعها فقال: ((هي في طرف جبل تاجرا))[٤]، ويسميه صاحب الاستبصار بجبل تاجر[٥]، بينما يسميه

---

(١) وصف إفريقيا: ٣٨٤.

(٢) المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط، ١٩٧١): ٥١.

(٣) العبر: ١٢٦/٦؛ عبد الوهاب بن منصور - قبائل المغرب، نشر، المطبعة الملكية (الرباط، ١٩٦٨): ٣٠٩/١.

(٤) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر مكتبة المثنى، (بغداد، بلا): ٨٠.

(٥) مؤلفه مجهول: ١٣٥.

ابن خلدون بـ ((تاكرارت)) وهو حصن في الجبل على هنين [١]، ويضيف الإدريسي ومن ((حصن تابحريت إلى هنين على البحر احد عشر ومنها إلى تلمسان في البر أربعون ميلاً، وفيما بينها مدينة ندرومه)) [٢].

ومهما يكن من أمر فقد أدرك المؤرخون أهميتها إذ اقترنت بشخصية عبدا لمؤمن بن علي (ت٥٨٨هـ-١١٦٣م) المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين الكومي أما وأبا ومن قوم يقال لهم بنو مجبر، والمولود في قرية من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا [٣]، بينما يذكر البيذق انه نزل جد أجداده ((بساحل تلمسان فاراً من بعض الفتن بالأندلس... فنسب ولده إليهم بالجوار والحلف)) [٤].

لقد وصف الجغرافيون مدينة ندرومه بأوصاف تؤكد تمتعها بخصائص المدينة الإسلامية، فقد ابرزوا خصائصها السكانية من كثرة بشرية وعمران، يقول الإدريسي: ((وهي مدينة كبيرة عامرة آهلة، ولها مزارع كثيرة ولها واد يجري في شرقيها، وعليه بساتين وجنات وعمارة

---

(١) العبر: ٦/ ١٢٧.

(٢) المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه محمد حاج صادق، (باريس، ١٩٩٣): ١٩٠.

(٣) يقول عبد الواحد المراكشي: ((كان عبد المؤمن بن علي إذا ذكر كوميه يقول: لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، و الكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال))، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي، (القاهرة، ١٩٦٣): ٢٦٥.

(٤) المقتبس: ١٤-١٥، ويجدر بالذكر أن التنسي يسمي منطقة تاجرارت بتلمسان الحديثة: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه محمود بوعياد، المكتبة الوطنية، (الجزائر، ١٩٨٥): ١٢٣.

وسقي كثير))[١]. وتكلم آخرون عن أهمية ندرومة الاقتصادية بما يتوفر فيها من ماء و نشاط اقتصادي، يقول البكري ((ومدينة ندرومه... غربيها وشماليها بسائط طيبة ومزارع . . . لها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار . . .))[٢].

ويضيف الحميري قائلاً ((وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار، ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة... وبساحلها نهر ماء يسيل وهو نهر كثير الثمار))[٣].

أما الخاصية الثالثة التي تمتعت بها مدينة ندرومه فهي التحصين، إذ أن الأمن يشكل عاملاً مهما في ديمومة الحياة في أية مدينة وفقدانه يعرضها إلى الاضطرابات الداخلية والخارجية ومن هنا فقد نوه الجغرافيون الذين وصفوها بأنها مدينة ((مسورة جليلة))[٤]، وقال الإدريسي أنها ((ذات سور وسوق وموضعها في سند))[٥]، وتأكيداً على هذه الخاصية قال الحسن الوزان ((ولا تزال أسوارها على حالها))[٦].

أما الخاصية الأخرى التي امتلكتها مدينة ندرومه فهي وجود ((المسجد الجامع))[٧]، الذي يعد شرطاً للمدينة إذ لا تسمى المدينة مدينة إلا بوجوده، يقول المقدسي ((لامدينة في مقياس علمنا إلا بمنبر))[٨].

---

(١) المغرب العربي: ١٩٠.

(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب: ٨٠.

(٣) الروض المعطار: ٥٧٦؛ وقد سبقه في هذا النص صاحب الاستبصار، ينظر: ١٣٥.

(٤) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب: ٨٠.

(٥) المغرب العربي: ١٩٠

(٦) وصف إفريقيا: ٣٨٤.

(٧) البكري، المغرب: ٨٠.

(٨) أحسن التقاسيم: ١٩٣.

ولم يكتف الجغرافيون الذين وصفوا مدينة ندرومه واجمعوا على ذلك بل أشاروا إلى رباطها وهو ما يؤكد مكانتها الدينية، يقول البكري ((.. وساحلها وادي ماسين وهو نهر كثير الثمار وله مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك فيه، إذا سرق احد فيه أو أتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته قد تعارفوا ذلك من بركته وحسن صنع الله فيه))[١].

ثانيا: ندرومه في مرويات العصر الزياني ●●●●●●●●●●●●●●●

تمتلك مدينة ندرومه خاصية تاريخية واضحة المعالم فهي مدينة كان لها موقفها التاريخي من الأحداث التي وقعت في المغرب العربي عموماً وتحديداً في دائرة التاريخ الذي نتكلم فيه، فقد بان موقفها، ولم تمنح ولاءها بسهولة، بل تحملت جراء ذلك التضحيات، وأول هذه الصفحات موقفها من تغيير دعوة الموحدين وإحياء الدولة اللمتونية ومفاد ذلك أن الضعف الذي أصاب الموحدين قد دفع الكثيرين إلى التفكير بالانسلاخ عن دولتهم، وقد شجع ذلك شيوخ بني عبد ألواد للسيطرة على تلمسان حيث كانوا قريبين منها، و تحقق لهم ما أرادوا وكان كبيرهم يومئذ جابر بن يوسف بن محمد وهو ابن عم زيان[٢]، والد أمير المسلمين يغمرا سن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/ ١٢٣٥-١٢٨٢م) مؤسس الدولة الزيانية[٣].

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب: ٨٠، مجهول - الاستبصار: ١٣٥؛ الحميري - الروض المعطار: ٥٧٦.

(٢) محمد بن عبدالله التنسي - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، حققه وعلق عليه محمود بو عياد، (الجزائر، ١٩٨٥): ١١٢.

(٣) للمزيد عنه ينظر بحثنا يغمرا سن بن زيان، ودوره في قيام الدولة الزيانية، مجلة التربية والعلم التي تصدرها جامعة الموصل، العدد السادس، تشرين الأول ١٩٨٨، ٢٤٥-٢٧٥.

وكان إذاك بتلمسان عثمان بن يعقوب المنصورالموحدي الذي كان بدوره يسعى إلى خلع طاعة بني عبد المؤمن، ويدرك أن ذلك لن يتم إلا إذا ((قرض كبار بني عبدالواد)) على حد تعبير التنسي، فدعا جابر بن يوسف وكبار قومه إلى وليمة عنده، فلما قربوا من البلد نمى إليهم ما عزم عليه، فتوقفوا خارج البلد، فلما بلغه قدومهم خرج إليهم مسرعا ليدخلهم البلد، فقبضوا عليه وأخذوه مع ثمانية من أصحابه، ودخل جابر وقومه البلد بدعوة المأمون خليفة الموحدين، فضبط أمرها واستولى على احواز تلمسان وبني راشد وعلى حواضره سوى ندرومه، إذ زحف إلى حصارها ((فهلك هنالك بسهم أصابه من داخلها لثلاث من إمرته))[١].

ولما قامت الدولة الزيانية، أثبتت مدينة ندرومه صموداً واضحاً بوجه المحاولات المرينية للاستيلاء عليها، فقد عزم الأمير يوسف بن يعقوب المريني الاستيلاء على المغرب الأوسط، فتقدم باتجاه عاصمة الزيانيين تلمسان سنة ٦٩٥هـ- ١٢٩٥م وسار حتى نزل على مدينة ندرومه ((فحاصرها وشدد في قتالها ورماها بالمنجنيق أربعين يوماً فامتنعت عليه، فأفرج عنها ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة)) [٢].

ولم تتوقف محاولات الأمير يوسف بن يعقوب في الاستيلاء عليها كبقية أخواتها من مدن المغرب الأوسط حتى دخلت سنة ٧٠٢هـ-١٣٠٢م حيث تمكن من تحقيق ذلك بعد حصار طويل فرضه على العاصمة الزيانية تلمسان استغرق مدة ثمان سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وبلغ عدد

---

(١) تاريخ بني زيان: ١١٣.

(٢) الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، (الدار البيضاء: ١٩٥٤-١٩٥٩): ٢/ ٤٧.

الموتى فيه من القتل والجوع زهاء مائة وعشرين ألفاً[١]، فاستولى بذلك على تلمسان وبلاد بني عبد الواد وبني توجين وبلاد مغراوة ومدينة الجزائر[٢].

ومن جانب آخر فقد احتفظت مدينة ندرومه بمنزلة دينية واضحة، فقد اختارها الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمرا سن سكنى له مؤثراً للانقطاع لطريق الآخره[٣].

وفيها ولد السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني بن أبي حمو الذي حكم الدولة الزيانية من سنة ٧٩١هـ-١٣٨٩م حتى سنة ٧٩٥هـ-١٣٨٣م إذ كان بكر أبيه أيامْ كان والده أبو حمو مع أبيه المولى يعقوب زمن انقطاعه للعبادة في ندرومة أول شهر ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ-١٣٥١م [٤].

ومما يؤكد امتلاكها لهذه الخاصية الدينية استقرار الزهاد فيها ومنهم الزاهد سيدي احمد بن الحسن ألغماري المتوفى سنة ٨٧٤هـ الذي انتقل فيما بعد بخلوته التي دفن فيها شرقي الجامع الأعظم بتلمسان، وقد افرد له ابن مريم ترجمة واسعة، نقتطف شيئا مما قاله بحق هذا الرجل: ((لاخفاء انه من أكابر أولياء الله تعالى المنقطعين لعبادته وتلاوة آياته في آناء الليل وأطراف النهار مع الصبر على ملازمة الخلوات وترك جميع الشهوات))، ويشير إلى انه قدم من المشرق على تلمسان وكان كثيراً ما يتردد في الساحل وجباله، ثم يصلي كل جمعة أما بالحنايا أو بند رومه أو بهناي

(١) للمزيد عنه ينظر: ابن خلدون، العبر: ٧/ ١٩٥-١٩٦، يحيى بن خلدون، بغية الرواد: ١/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) الناصري، الاستقصا: ٢/ ٥٢.

(٣) التنسي، تاريخ بني زيان: ١٥٢.

(٤) التنسي، تاريخ بني زيان: ١٨٤.

ونحوها، وقد مكث زمناً طويلاً بها يبيت بالليل في الجامع الكبير منها كما كان في كل ليلة من رمضان يقرأ في الحوا ميم أي انه يختم في كل ليلة[١].

ثالثا: دور مدينة ندرومه في الحياة العلمية ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

أسهمت مدينة ندرومه بقسط غير قليل في الحياة العلمية على عهد الزيانيين، وإذا كان المؤرخون القدامى والمهتمون بكتب التراجم قد أولوا اهتماما واضحا إلى علماء تلمسان كونها عاصمة الزيانيين فان ذلك لم يبعد هذه المدينة عن اهتمامهم وما قدمته من شخصيات علمية كان لها دورها العلمي الواضح.

وتقف أسرة ابن عبد النور الند رومي شاهدا ساطعا على ذلك حيث لمع في سمائها اسم الفقيه القاضي محمد بن عبدالله بن عبد النور الند رومي المتوفى في وباء الطاعون بتونس سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٧م[٢]. وقصة هذا الفقيه مشهورة وهي انه لما استولى السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المر يني (٧٣١هـ-٧٥٢م/ ١٣٣١-١٣٥٢م) على العاصمة الزيانية تلمسان وبقية مدن المغرب الأوسط في ٢٧ رمضان سنة٧٣٧هـ-٢٩ نيسان ١٣٣٧م بعد أن فرض حصارا عليها أكثر من سنتين[٣]. قرب إليه عددا من علماء تلمسان فاختص بالأخوين أبي زيد عبد الرحمن (ت ٧٤٣هـ - ١٣٤٢م)

---

(١) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله الشيخ محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية (الجزائر، ١٩٠٨): ٣١-٣٢.

(٢) ابن خلدون - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، نشر دار الكتب اللبناني (بيروت: ١٩٧٩): ٤٦-٤٧.

(٣) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٢٥٧، يحيى ابن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق الفرد بل، مطبعة بيير مونطانا (الجزائر: ١٩٠٣) ١/ ١٤١-١٤٢.

وأبي موسى عيسى (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) ابني الإمام، إذ كان السلطان المريني يستكثر من العلماء ويعمر بهم مجلسه فطلب منهما أن يختارا له من أصحابهما من ينظمه في فقهاء المجالس، فأشارا عليه بابن عبد النور، فأدناه وقرب مجلسه وولاه قضاء عسكره، و قضاء فاس[١].

نعته المؤرخ يحيى بن خلدون بقوله: ((الشيخ الفقيه العلامة... من الفقهاء المدرسين وأهل الفتيا والدين، ولي قضاء بلده فحمدت سيرته عدلا وحسن خلق...))[٢]. ووصفه الخطيب ابن مرزوق المتوفى سنة ٧٨١هـ - ١٣٧٩م قائلا: ((الفقيه الفاضل المتخلق كان أفصح الناس لسانا وأحسنهم طريقة وأعذبهم عبارة... استعمله [يعني أبو الحسن المريني] في الزكواة وسماع الشكايات، ثم ولاه قضاء تلمسان، ثم ولي قضاء الحضرة - فاس -)) ورحل معه إلى افريقية - تونس - متوليا خطة القضاء إلى أن توفي بتونس ودفن بمقبرة الزلاج منها، وحضر السلطان أبو الحسن المريني جنازته والملأ من الخاصة والعامة، ويذكر ابن مرزوق عنه انه ((كان محبوبا لبني مرين ولسائر زناته، بما لا يتصرف به أكابرهم، ويضرب الأمثال التي يستغربونها، ويحفظ فانه كان أفصح الناس لسانا بالعربية والزناتية يتصرف في لسان زناته أشعارهم، وكان حسن الخلق، وطئ الأكتاف، قريبا متواضعا، متخلقا، وكان مشاركا في علوم، وأعانه على ظهوره لسانه))[٣].

ويروى عنه انه لما كان قاضيا في فاس على عهد السلطان أبي الحسن

---

(١) التنبكتي- نيل الابتهاج: ٢٤٢.

(٢) بغية الرواد: ١/ ٥٨.

(٣) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، مراجعة محمود بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر: ١٩٨١) ٢٦٧.

أقام الحد على اعز أولاد السلطان وهو الأمير أبو مالك وكذلك ولد وزيره عامر بن فتح الله، وكان يجلس في قبة العدل بتلمسان للنظر في القضايا والشكايا التي ترفع للسلطان[١].

قام الفقيه القاضي أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد النور الندرومي بتدريس طلبة تونس أثناء مدة سيطرة السلطان أبي الحسن المريني على تونس عاصمة الحفصيين سنة ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م وكان من بين تلامذته الذين أخذوا دروسه العلامة عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى مدة بقائه في تونس، وقد أثنى الأول على شيخه، وأكد فضله في تدريسه عندما ذكر شيوخه في رحلته[٢].

وأخذ عنه الفقيه محمد بن محمد بن احمد المقري التلمساني (ت ٧٥٩هـ- ١٤٠٥م) الذي قال: ((وممن أخذت عنه واستفدت منه بتلمسان القاضي أبو عبدالله محمد بن عبدالنور)) والإمام أبو عبدالله ومحمد بن علي الشريف الحسيني الشهير بالعلوي ((٧١٠- ٧٧١هـ - ١٣١٠ - ١٣٦٩م))[٣]. والرحالة الأديب خالد بن عيسى البلوى صاحب الرحلة المشهورة المسماة «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»[٤].

أما الفقيه الثاني من هذه الأسرة فهو أخوه الفقيه علي بن عبدالله بن عبد النور الذي درس مع أخيه أبي عبدالله الند رومي الفقه على ابني الإمام إلا انه كان ((اقصر باعا منه في الفقه)) ولما وصل إلى عرش الحكم

---

(١) ابن مرزوق- المسند الصحيح: ١٤٢، ١٧٣.

(٢) التنبكتي - نيل الابتهاج: ٢٤٢.

(٣) ابن مريم - البستان: ١٦٨، ٢١١.

(٤) ابن القاضي - جذوة الاقتباس في ذ كرمن حل من الأعلام مدينة فاس، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط: ١٩٧٣): ١٨٦.

المريني أبو عنان بعد أن خلع طاعة أبيه السلطان أبي الحسن، ونهض إلى فاس، أخذه معه وولاه قضاء مكناسة ولم يزل بها حتى تغلب الوزير عمر بن عبدالله على دولته فقرر الفقيه علي الند رومي الذهاب إلى الحج فطلب ذلك وخرج حاجا سنة ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م، ولما قدم مكة مرض هناك واهلك في طواف القدوم، وأوصى أمير الحاج على ولده محمد، وان يبلغ وصيته به للأمير على الديار المصرية وكان يوم ذاك ببغا الخاصكي فأحسن معاملة ولده وولاه وظيفة في قضاء مصر (ما سدت به خلته وصان عن سؤال الناس وجهه وكان محمد مهتما بعلم الكيمياء، وقد عانى من جراء اهتمامه بهذا العلم ما دفعه إلى أن يرحل عن مصر، ويسكن بغداد، ثم إلى ماردين حيث استقر عند حاكمها فأحسن جواره إلى أن توفى بعد التسعين كما ذكر ذلك ابن خلدون))[١].

يقول يحيى بن خلدون عن الفقيه أبي الحسن علي الند رومي انه ((من أهل العلم والفضل والسخاء بذات يده، ولي القضاء نائبا عن أخيه ومستقلا بعد موته بكثير من حواضر المغرب فعدل وجالس الملوك))[٢].

وأنجبت مدينة ندرومة عالما آخر أسهم بشكل مميز في علوم القرآن، ولمع اسمه في المغرب قاطبة، إنه الفقيه أبو العباس احمد بن احمد بن عبد الرحمن بن الأستاذ الند رومي الذي كان حيا بعد سنة ٨٣٠ هـ-١٤٢٦م، وهو من تلاميذ الفقيه محمد بن احمد بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني (٧٦٦-٨٤٢هـ-١٣٦٤-١٤٣٩م) شيخ الإسلام وإمام المسلمين[٣].

---

(١) العبر: ٧/ ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) بغية الرواد: ١/٥٨-٥٩.

(٣) للمزيد عن ترجمة ابن مرزوق الحفيد: ينظر التنبكتي - نيل الابتهاج: ٢٩٣- ٢٩٩؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، نشر دار الثقافة، (بيروت: ١٩٨٠): ٢/٢١٢-٢١٦.

اشتهر أبو العباس احمد الند رومي بعلوم القرآن وبرع في علم القراءات وألف فيه ومن بين مؤلفاته اختصاره الحسن لشرح شيخه ابن مرزوق الحفيد على جمل الخونجي[١].

أما في ميدان العلوم العقلية فقد نبغ منها الطبيب المشهور محمد بن سحنون المعروف بالند رومي الذي ينسب إلى قبيلة كوميه، وصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: ((جليل القدر، فاضل النفس، مجد للفضائل حاد الذهن، مفرط الذكاء)) وقد درس الطب والتحق بالقاضي أبي الوليد بن رشد واشتغل عليه بصناعة الطب كما درس على يد الطبيب يوسف بن موراطير حتى صلب عوده فانخرط في خدمة الدولة الموحدية فكان طبيبا للناصر الموحدي في آخر دولته ثم خدم ولده المستنصر، بعدها انتقل إلى اشبيلية حيث خدم النجاء سالم بن هود، وأخاه عبدالله بن هود، وكان من بين مؤلفاته اختصاره كتاب المستصفى للغزالي[٢].

---

(١) ابن مريم، البستان: ٢٩٧/٤٤، حاجي خليفة - كشف الظنون: ٦٠٢/١، كحاله، معجم المؤلفين: ١٥٠/٢.

(٢) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٩٦٥): ٣٧؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط٢، مؤسسة نهويض الثقافية للتأليف والنشر، (بيروت: ١٩٨٠): ٣٢٠؛ عبد العزيز بن عبدا لله - الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية (الرباط، ١٩٥٩) ٣٦.

إسهامات علماء بجاية في النهضة الموحدية

شهدت بجاية في اواخر النصف الاول من القرن السادس للهجرة - الثاني عشر للميلاد حدثا سياسيا مهما تمثل في زوال حكم بني حماد، وخضوعها لسلطة الموحدين الجدد اذ تمكن الخليفة الموحدي المؤسس عبد المؤمن بن علي من توسيع دائرة نفوذه فاتجه بفتوحاته شرقا بعد ان احاطها بسرية تامة، فسار مسرعاً نحو بجاية، واستولى في طريقه على جزائر بني مزغنه - مدينة الجزائر الحالية-، أما بجاية فقد حاصرها وضيق عليها اشد التضييق فيما هرب حاكمها يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي إلى بونه ثم خرج منها إلى قسنطينة فارسل اليه عبدالمؤمن بالجيوش فاستنزل واتى به عبد المؤمن بعد ان عاهده ان يؤمن في نفسه واهله، ثم رتب بعد ذلك من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها، واستعمل عليها ابنه عبدالله وكر راجعاً إلى عاصمته مراكش ومعه يحيى بن العزيز وقد اظهر له عناية لامزيد عليها [1].

لم تفقد بجاية بريقها بتبدل حكامها، فقد بقيت من المراكز الثقافية

---

(١) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة: ١٩٦٣): ٢٧٢- ٢٧٥.

المهمة في الجزائر لعوامل عدة منها، عناية ملوك بني حماد بعلمائها، واغراقهم بالمنح والجوائز على المبرزين بالعلوم والفنون والمعارف منهم فقد كان الناصر بن علناس بن حماد (ت ٤٨١هـ - ١٠٨٨م) الذي بنى مدينة بجاية وسماها الناصرية وبنى بها قصر اللؤلؤة يقصده الشعراء ففيه يقول ابن فكاه القيرواني:

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا
مهلاً عليك فانت الرائح الغاد!
فقلت: تاالله لاأنفك ذا سفر
تجرى بي الفلك او يحدوبي الحادي
حتى أقبل ترب العز منتصراً
بالناصر بن علناس بن حماد[١]

أما ولده المنصور بن الناصر (ت ٤٩٨هـ-١١٠٤م) فكان «يكتب ويشعر»[٢] وكان يحيى بن العزيز بن المنصور (ت ٥٤٤هـ-١١٤٩م) «فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة»[٣].

وبسبب ذلك الدعم وما أنجزه ملوكها من مؤسسات علمية اندفع أبناؤها إلى حلقات العلم، وتشير الوثائق المحفوظة عن تاريخ بجاية أن

---

(١) لسان الدين بن الخطيب - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق د. احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، نشر دار الكتاب (الدار البيضاء: ١٩٦٤) ق٣/ ٩٦- ٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ق ٣/ ٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ق / ٩٩.

الناصر كان قد انشأ فيها «معهد سيدي التواني» الذي كان يحتوي على ثلاثة الاف طالب، يدرسون فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية، ويذكر في هذا الشأن أن تلميذة من ذلك المعهد القت محاضرة دامت ثلاثة أيام حول بروج الشمس أمام مجموعه من العلماء الأجانب، اذ كان مرخصا لهن التعليم وتقديم الاطروحات العلمية فيه[١]، ومثال آخر لمكانة المراة وعلمها نذكر الشريفة عائشة بنت أبي الطاهر عمارة بن يحيى عمارة الشريف الحسيني (ت بعد ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م) التي وصفها الغبريني بقوله: «كانت اديبة أريبة، فصيحة لبيبة، وكان لها خط حسن، رأيت كتاب الثعالبي بخطها في ثمانية عشر جزءاً»... ومن نظمها.

أخـــذوا قـــلـــبـــي وســـاروا
واشـــتـــيـــاقـــي أو دعـــونـــي

لاعـــدا إن لـــم يـــعـــودوا
فـــاعـــذرونـــي أو دعـــونـــي؟

وقيل أنها بعثت بهما إلى الفكون - شاعر المغرب الاوسط في المائة السابعة وقالت: عارضها أو زد عليها، فكتب لها معتذراً عن الجواب، أن الاقتصار عليها هو الصواب[٢].

ومما يدعم بقاء بريق بجاية متوهجاً لاينطفيء موقعها الجغرافي فهي

---

(١) عبد الحليم عويس - دولة بني حماد، نشر دار الشروق (بيروت - القاهره: بلا) ٢٥٤.

(٢) عنوان الدارية فيمن عرف من العلماء في المائه السابعه ببجاية - حققه وعلق عليه عادل نويهض، ط٢ منشورات دار الافاق الجديده(بيروت: ١٩٧٩) ٤٧- ٤٨.

«قاعدة المغرب الاوسط... وهي عين بلاد بني حماد والسفن اليها متكررة وهي قطب لكثير من البلاد... البحر فيها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجوف..»[١] ولاهمية موقعها وصفها البكري بقوله: «مدينة بجاية ازلية اهله عامرة باهل الاندلس بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون..»[٢]، وخير شاهد على تلك المدة الادريسي الذي وصفها في منتصف القرن السادس للهجرة - الثاني عشر للميلاد قائلاً: «مدينة بجاية في وقتنا هذا هي مدينة المغرب الأوسط، والسفن اليها مقلعة ولها القوافل متجهة والأمتعة إليها براً وبحراً».... وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق...[٣]

من هنا باتت مدينة بجاية ملتقى العلماء ودار استراحتهم يقصدها اهل الاندلس من مدنه المختلفة فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد انتقل اليها الفقيه الاصولي المشارك المحصل احمد بن خالد من اهل مالقه وجلس للاقراء ببجاية بمنزله حتى توفي فيها نحو سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م[٤]، وانتقل اليها الشيخ الفقيه الحكيم أبو القاسم محمد بن احمد بن محمد الاموي المعروف بابن اندراس من اهل مرسيه (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) وتصدى لاقراء الطب والعربية، وكان متوليا لطب الولاة ببجاية ثم رحل إلى افريقية باستدعاء اميرها المستنصر، ثم توفى بتونس في

(١) محمد عبد المنعم الحميري - الروض المعطار في خبر الاقطار، حققه احسان عباس، ط٢ (بيروت ١٩٨٤) ٨٠- ٨١.

(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقيةو والمغرب وهو جزء مكن كتاب المسالك والممالك، نشر مكتبة المثنى (بغداد: د ت) ٨٢.

(٣) اسماعيل العربي - عواصم بني زيري، ط١ نشر دار الرائد العربي (بيروت ١٩٨٤) ٥٧.

(٤) الغبريني - المصدر السابق: ٧٣- ٧٤.

سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م[١] ومنهم الفقيه الخطيب النحوي أبو عبدالله محمد بن صالح بن أحمد الكناني (٦١٤- ٦٩٩هـ / ١٢١٧ - ١٢٩٧م) ولي فيها النظر في الأنكحة نائباً عن قضاتها مدة،وولي إقامة الفريضة والخطبة بجامعها الاعظم ماينيف عن ثلاثين عاماً[٢]، والشيخ الفقيه أبو الحسن عبدالله بن عبد المجيد الازدي ٦٠١هـ- ٦٩١هـ/ ١٢٠٤- ١٢٩٢م من اهل رنده رحل إلى العدوة واختار بجاية فاستوطنها، وحظي بمنزلة طيبة فزاره القضاة والامراء ومن دونهم، ومازال فيها ودفن بمقربة من الباب الجديد[٣]، وكذلك القاضي الشهير أبو العباس احمد بن محمد بن حسن ابن الغماز الانصاري (٦٠٩-٦٩٣هـ / ١٢١٢-٠ ١٢٩٤م) من اهل بلنسية، رحل إلى بجاية واستوطنها ثم ارتحل إلى حاضرة افريقية، وقبل هذا تولى قضاء بجاية وولي اقامة صلاة الفريضة بجامعها الاعظم[٤]، والفقيه أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن زاهر الانصاري (٥٧٧٠-٦٥٤هـ/ ١١٨١- ١٢٥٦م) من اهل بلنسية، رحل إلى العدوة واستوطن ببجاية وتوفى بها ودفن بخارج باب اميسون، وكان له علم بالقراءات وحظ في العربية[٥].

وإذا كان انتقال علماء الاندلس واستيطانهم منها امراً مستمراً فان اختيار علماء تونس لها لايقل درجة عن ذلك فها هو أبو القاسم بن أبي بكر اليمني الشهير بابن زيتون (٦٢١- ٦٩١هـ / ١٢٢٤- ١٢٩٢م) من اهل

---

(١) المصدر نفسه / ٧٥- ٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ٧٩- ٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٧- ١٠٨.

(٤) المصدر نفسه: ١١٩- ١٢١.

(٥) المصدر نفسه: ٢٨٩- ٢٩٠.

تونس العالم باصول الفقه والعقائد الكلاميه والمنطق قد درس على يديه طلبتها واعتنى بهم حتى لقي اجله فيها[(١)] وكذلك الفقيه أبو العباس احمد بن عثمان بن عجلان القيسي ٦٠٧هـ - ٦٧٨هـ / ١٢٠٩- ١٢٧١م من اهل تونس إذ استوطن بجاية مدة من الزمن وانتفع به الناس علما وعملاً.

ومما يؤكد اهمية بجاية وصلاتها العلمية ما ذكره بعض الباحثين بان بجاية عاصمة الرياضيات ومنها اخذ الاوربيون الارقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة اقليدس[(٢)]، ويضيف عويس حقيقة ثانية بقوله: «وإذا كانت الأرقام العربية وعلم الجبر والمقابلة قد انتشروا في إيطاليا عبر ليوناردفنشي المولود سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، فان ليوناردفنشي هذا كان من تلامذة الحضارة الحمادية ببجاية»[(٣)].

ويكفى لنختتم مكانتها العلمية باستعارة ماقاله الغبريني عنها عندما اعتذر عن ذكر خلق كثير من اهل المائة السادسة لتعارض ذلك مع غاية كتابه التي هي حصر علماء المائه السابعة، وكذلك ما نقل عن أبي علي المسيلي (ت نحو ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) انه سمع عنه قائلاً: «ادركت ببجاية تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون»[(٤)].

إسهامات علماء بجاية في النهضة الموحدية

لم يجد الموحدون بلاد المغرب قاحلة من المعارف، وبالعكس فقد وجدوها قد بلغت شأو كبيراً، فحافظوا على ما ورثوه من العهد المرابطي

(١) المصدر نفسه: ٩٧- ٩٨

(٢) عثمان الكعاك - محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب العربي، نشر معهد الدراسات العربية ١٩٥٧: ١٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٨٥.

(٤) المصدر السابق ٥٥.

وزادوا عليه، فكان عهدهم من اخصب مدد الحياة الفكرية في المغرب والاندلس، وكانت عادة خلفائهم استجلاب العلماء الكبار إلى مراكش حاضرة دولتهم يقول المراكشي: «وكان عبد المؤمن مؤثراً لاهل العلم، محبالهم، محسنا اليهم، يستدعيهم من البلاد إلى السكون عنده، والجوار بحضرته، ويجري عليهم الارزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم»[1]، اما ولده الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد كان اعرف.

كيف تكل العرب، واحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام صرف عنايته إلى ذلك أيام ولايته لاشبيلية في حياة ابيه، لقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن... أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، واحفظهم للغة العربية.. كان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو[2].

لقد صرف الخلفاء الموحدون عنايتهم في تشييد المدارس، وجلب العلماء وتأسيس الخزانات العلمية، فابتكروا التعليم المجاني، فصارت مدنهم وطناً للعلماء، حتى اجتمع في فاس علم القيروان وعلم قرطبة، وصارت مراكش هي الاخرى عاصمة علم ثانية فسماها غير واحد ببغداد المغرب ناهيك عن المدن المغربية الاخرى التي راجت بها بضاعه العلم بفضل أبنائها ومن وفد إليها من الأدباء والفقهاء[3].

وعلى هذا الأساس فقد برز في نهضة الموحدين رجال وفدوا على

---

(١) المصدر السابق: ٢٦٩.

(٢) المراكشي - المصدر السابق: ٣٠٩- ٣١٠.

(٣) محمد المنوني - العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين، ط٢، نشر دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر (الرباط: ١٩٧٧) ١٦- ١٧.

حاضرتهم مراكش وتصدوا مجاليس العلم فيها وكان لعدد غير قليل من اهل بجاية نصيباً في تلك النهضة نكتفي بسرد اعلام منهم فمن تفوقوا على امرتهم.

■ أ - اسهاماتهم في العلوم النقلية:

برز في هذا الحقل من العلوم اعلام اغنوا المجالس العلمية بثقافتهم والفوا الكتب النفسية حتى باتت مراجع مهمة بأيدي طلبة العلم، وظلت شاهداً على غزارة انتاجهم العلمي في تلك الحقبة التاريخية.

ومنهم المحدث الفقيه الاديب عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبدالله الأزدي الشهيد بابن الخراط (٥١٤هـ - ٥٨٢هـ/ ١١٢٠ - ١١٨٦م) ولد باشبيلية ودرس على علمائها، ثم انتقل إلى مدينة بجاية بعد زوال حكم المرابطين واستقر بها[١].

لقد ذاع صيته وعرف بعلمه بالحديث وعلله ورجاله، وكان فقيهاً حافظاً، ورجلاً موصوفاً بالخير والصلاح والزهد، فضلاً عن شهرته في الأدب وقول الشعر[٢].

روى عنه جلسة من العلماء منهم أبو الحجاج بن الشيخ البلوي وأبو ذر الخشيني والحافظ أبو محمد بن الحسن القرطبي والقاضيان أبو محمدو أبو سليمان ابنا حوط الله وأبو محمد بن عطيه وأبو الخطات بن خليل وهو اخر من حدث عنه، يقول عنه احمد بن يحيى الضبي وهو ممن قرا عليه: «قرأت عليه وناولني وكان رحمه الله متواضعا، قسم نهاره على أقسام اذا صلى الصبح قرا إلى وقت الضحى ثم قام فركع ثمان ركعات ونهض إلى،

---

(١) ابن الزبير - صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال (الجزائر: ١٩٧٤)، ٤-٧؛ ابن الابار - التكملة لكتاب الصلة، صنع مطبعة روخنس (مدريد: ١٨٨٦) ٦٤٨.

(٢) الصفدي - الوافي بالوفيات: ٦/ ٤٧.

منزله واشتغل بالتاليف إلى صلاة الظهر فإذا صلى الظهر أدى الشهادات وقرى عليه في أثناء ذلك إلى العصر فاذا صلى العصر مشى في حوائج الناس»[١]، ويضيف الغيربني أنه «كان يقسم ليلة أثلاثاً ثلثا للقراءة وثلثا للعبادة وثلثا للنوم»[٢].

من أثاره تصنيفه في الأحكام نسختين كبرى وصغرى، و«**الجمع بين الصحيحين**»[٣] وجمع الكتب السته، وله كتاب في المعتل من الحديث وكتاب في الزهد وكتاب العاقبة في ذكر الموت[٤]، وله كتاب[٥] في اللغة ضاهى به كتاب الغريبين للهروي[٦]، وربما يكون كتابه المسمى بـ «الحاوي» وهو في ثمانية عشر مجلداً[٧]، ونقل عن محمد بن حسن بن عبدالله بن خلف الانصاري عن المؤلف جملة من تأليفه منها كتاب المرشد الذي يتضمن حديث مسلم كله وما زاد البخاري على مسلم، وما أضاف

---

(١) الضبي - بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس، نشر دار الكتاب العربي (القاهرة: ١٩٦٧) ٣٩١- ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق: ٤٢.

(٣) فيه مجلدان، يوجد بخزانه مراكش بجامع ابن يوسف، قسم المخطوطات تحت رقم ١٠ ويوجد الجزء الاخير بخزانه القرويين (ق١٨٩) عبد العزيز بعبدالله- الموسوعه المغربية في الاعلام البشرية والحضارية، نشر وزارة الاوقاف (الرباط: ١٩٧٥):١/ ٨٥- ٨٦؛ عبد الهادي احمد الحسين - مظاهر النهضة الموحدية في عهد يعقوب المنصور الموحدي، نشر اللجنة المشتركة لاحياء التراث الاسلامي، مطابع الشويخ (تطوان: ١٩٨٢)، ٢/ ٧٣.

(٤) الكتبي - فوات الوفيات: ٢/ ١٦٤.

(٥) ابن الابار - المصدر السابق:٦٤٨.

(٦) الغبريني - المصدر السابق: ٤٣.

(٧) ابن فرحون - الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، بدراسة وتحقيق مامون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٦) ٢٧٦ - ٢٧٨.

إلى ذلك أحاديث حساناً وصحاباً من كتاب أبي داؤد والنسائي والترمذي وغير ذلك، وما وقعه في الموطأ مما ليس في مسلم والبخاري وهو أكبر من صحيح مسلم وكتاب الجامع الكبير في الحديث الذي يقصد عنه الكتب السته، وما أضاف إليها من مسند البزاز وغيره ومنه صحيح ومعتل، تكملة على علله، وله كتاب التوبه في سفر ين ومعجزات الرسول (ﷺ) في سفر ومقاله في الفقر والغنى وكتاب الصلاة والتهجد في سفر وكتاب تلقين الوليد في الحديث وهو سفر صغير وكتاب الميز والأنيس في الامثال والمواعظ والحكم والاداب من كلام (ﷺ) ومختصر كتاب الرشاطي في الانساب من القبائل والبلاد وهو في سفرين ومختصر كتاب الكفاية في علم الرواية وكتاب فضل الحج والزيادة وكتاب الواعي في اللغة وهو نحو خمسة وعشرين سفراً [١] وذكر له المقري بعضاً من مؤلفاته فاضاف إلى الأحكام كتاب الاحكام الوسطى[٢] ويذكر البغدادي كتاب تهذيب المطالب[٣]، ومما يذكر عن اثر مؤلفاته قيام الحافظ علي بن محمد بن عبد الملك الشهير بابن القبطان (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠ م) بوضع كتاب سماه «الوهم والايهام الواقعين في كتاب الاحكام»[٤].

وتناولت كتب التراجم مقطوعات من شعره الديني يقول في إحداها: -

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب؟، تحقيق احسان عباس، نشر دار صادر (بيروت: ١٩٦٨) ٢ / ١٦٤.

(٢) هدية العارفين: ١/ ٢٦٠.

(٣) محمد جعفر الكتاني - الرسالة المستطرفة، تحقيق محمد المنتصر الكتاني، نشر دار البشائر الاسلامية (بيروت: ١٩٨٦) ١/ ١٧٨.

(٤) ابن الزبير - المصدر السابق: ٦.

دع الدنيا لطالبها وجافي
بنفسك عن مزاحمة القوافي
وخذ منها كفافاً من حلال
فانك لا تلام على كفاف

ومن شعره أيضاً:

يا أمن الساحة لا يذعر
بين يديك الفزع الأكبر
والمرء منصوب له حتفه
لو انه بن عمه يبصر
وهذه النفس لها حاجة
والعمر عن تحصيلها يقصر
وكلما تزجر عن مطلب
كانت به اهيم اذ تزجر
وربما القت معاذيرها
لو انها ياويحها تعذر[1]

ويقول في قصيدة أخرى: -

يا راكب الردع للذاته
كأنه في اتن عير

(١) الضبي - المصدر السابق ٣٩١- ٣٩٢.

واكــــلا كـــل الـــذي يـــشـــتـــهـــي
كـــأنـــه فـــي كـــلأ ثـــور
ونـــاهـــضـــا ان يـــدع داعـــي الـــهـــوى
كـــأنـــه فـــي خـــفـــة طـــيـــر

لم يكن على وفاق مع الموحدين، فقد انتقل من مدينته اشبيلية إلى مدينة بجاية بعد زوال حكم المرابطين واستقر فيها، ولما اخذها الموحدون اعتذر عن تولي خطتي القضاء والخطابة ببجاية بينما وافق عليها بعد ان دخل ابن غانية الميورقي وهو من اتباع المرابطين الها، وبعد خروج الأخير ودخول الموحدين عليها عوتب على ذلك، وأبدى تبريرات لذلك[١].

ويبدو أن موقفه من الموحدين لأنهم كانوا يقولون بعصمة المهدي ابن تومرت اذ كان يعتبر دعوة المهدي وتعاليمه بدعه ظهرت في الدين، لا يحل لمسلم ان يرضاها عقيدة له وهو ما دفعه إلى التعاون مع ابن غانية اللمتوني لما استرد بجاية فاصبح له قاضيا وخطيبا[٢].

أما نسبته إلى بجاية فيجيب عنها الغبريني قائلاً: «انما نسبه إلى بجاية لاستيطانه بها وظهور رحاله وتصانيفه فيها» ويضيف: «وتوفي بها في آواخر ربيع الثاني من عام اثنتين وثمانين وخمسمائة وكان تاريخ وفاته مكتوباً في رخامة عند قبره.. وقبره خارج المرس»[٣].

بقي أن نذكر أن كتبه قد تناولها العلماء من بعده، فقد شرح القاضي

---

(١) ابن الزبير – المصدر السابق: ٥.

(٢) محمد الرشيد ملين – عصر المنصور الموحدي، ط٢ (الرباط: دت) ٦٨.

(٣) المصدر السابق: ٤٣– ٤٤.

محمد بن علي الصنهاجي (ت٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) كتاب الاحكام الصغرى وسماه الإعلام بفوائد الأحكام[١]، وشرح أبو محمد عبد العزيز بن بزيره التونسي (ت٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) كتاب الاحكام الصغرى وتعقبها ابن دقيق العيد المصري (ت٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) استناداً إلى ما ذكره الرحالة ابن رشيد (ت ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) بقوله: «ولشيخنا الحافظ ابن دقيق العيد، إملاء على مقدمة كتاب الأحكام الصغرى[٢]، وشرحها أبو عبدالله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني ت ٧٨١ هـ ومحمد بن القاسم القصار الفاسي من أهل القرن العاشر»[٣].

عكف على دراسة الأحكام اهل العلم، فقد ذكر التجيبي أن «الأحكام الصغرى، هامة، كانت تدرس من بعض شيوخ العلم بمدينة سبته وغيرها من المدن المغربية[٤] ويضيف المقري انه جاء في تذييل ابن سعيد على رساله المفاضلة لابن حزم» وكتاب الاحكام لأبي محمد عبدالله الأشبيلي، مشهور متداول القراءة، وهي أحكام كبرى، وأحكام صغرى، قيل ووسطى[٥].

واثنى ابن عربي الحاتمي (٥٦٠ هـ-٦٣٨هـ/ ١١٦٤هـ-١٢٤٠م) عن شيخه عبدالحق الاشبيلي فقال: «ومن شيوخنا.. أبو محمد عبدالحق بن عبد الحق بن عبدالله الاشبيلي، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين

---

(١) الغبريني - المصدر السابق

(٢) أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي - ملء العتبة بما جمع لطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقديم وتحقيق د. محمد الحبيب، الخوجه، الشركة التونسية للتوزيع (تونس: ١٩٨١) ٣ / ٢٦١.

(٣) الحسين - المرجع السابق: ٢/ ٧٥.

(٤) برنامج التجيبي - تحقيق عبد الحفيظ منصور (الدار العربية للكتاب ١٩٨١):١٥١.

(٥) المصدر السابق: ٣/ ١٨٠.

لي من اسمائها، تلقين المهتدي والاحكام الكبرى والوسطى والصغرى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره [١].

أثنى عليه العلماء فقد قال في حقه الشيخ أبو مدين «كان الشيخ أبو محمد عبد الحق الاشبيلي حمال الحفاظ، زين العلماء، عمادة الرواة، راس المحدثين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي الخطيب المحدث» وأخاه في بجاية واقر له بالسبق في طريق الحق[٢].

ولم يتوقف ثناء العلماء عند عصره فمدحه أمثال الحافظ الذهبي (ت سنة ٧٤٨هـ- ١٣٤٧ م) واستشهد بشعره[٣] واعتمده كبار الفقهاء أمثال ابن الحاجب والشيخ خليل وابن عرفه وغيرهم كثير لأن عبد الحق اذا سكت عن الحدبث، فانه لايسكت الاعلى الصحيح والحسن[٤].

ومن أبناء مدينة بجاية البارزين في ميدان الأدب الكاتب البارع أبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي ويعرف بابن محشرة[٥] (حوالي٥٤٠-٥٩٨هـ/ ١١٣٥- ١٢٠٢م) نعته الغبريني قائلاً: «له علم متسع المدى، وتخصص ووقار بما سبيله فيما يقتدى، كان متمكن المعرفة، حسن الإشارة والصفة، له الهمة السنية والأخلاق المرضيه، وكان وجيهاً مكرماً ومشرفاً معظماً»[٦].

ويرجع ذيوع صيته إلى قضية استدعائه من قبل الخليفة يوسف بن عبد

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ١٦٤.
(٢) الغبريني - المصدر السابق: ٤٢
(٣) تاريخ الاسلام، شبكة المعلومات العالمية (موقع الوراق) ٩/ ١٢٤.
(٤) الكتاني - المصدر السابق: ١٧٩؛ الحسين - المرجع السابق: ٢/ ٧٨.
(٥) بسمية المراكشي بجعنر المعروف بابن محشوه، المصدر السابق: ٣٣٨.
(٦) المصدر السابق: ٥٣.

المؤمن، بعد أن توفي كاتب سر الخليفة بمراكش، فوفد على الخليفة مسعود بن سلطان الرياحي المعروف بمسعود البلطي وكانت له عنده مزية قال: فدخلت عليه يوماً فوجدته مغتماً... فقلت له ياسيدنا يا أمير المؤمنين ما الذي اهمكم لا أهمكم الله؟ فقال لي ان كاتب سرنا فلانا قد مات وقد اصبحنا إلى من نقيمه مقامه وما وجدنا... فقلت له بشراك ياسيدنا يا أمير المؤمنين، هذا الرجل ببجاية أبو الفضل ابن محشرة، ووصف له من صفاته له ما وقع منه موقع القبول، فكتب اليه امير المؤمنين من حينه، وامر والي بجاية ان يحتفي به ويحمله خير محمل[١].

لم يزل أبو الفضل جعفر ابن محشرة كاتباً ليوسف حتى وفاته ثم اصبح كاتبا لابنه حتى توفى وقد اشاد المراكشي باسلوبه فقال: «جمع أبو الفضل هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس»[٢].

وتكشف الرسائل التي جمعها المستشرق ليفي بروفنسال تحت عنوان «رسائل موحية» ومنها تسع رسائل كتبها أبو الفضل ابن محشرة وأبو عبدالله عياش الأندلسي عن رقي أسلوبها، وعلو فصاحتها، وتميز إبداعها[٣].

وزيادة على ذلك فانه لما وصل إلى مراكش عاصمة الخلافة الموحدية ومثل بين يدي الخليفة، فاكرم نزله ورفع منزلته، ولما وقع الاطلاع على ما عنده من فنون العلم «علم ان الكتابة التي وقع الاستدعاء بسببها إنما هي بعض صفاته، وإحدى آلاته وأدواته»[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٥٤.

(٢) المصدر السابق: ٣٣٨

(٣) (الرباط: ١٩٤١) ١٤١؛ الحسين - المرجع السابق: ١٠٦.

(٤) الغبريني - المصدر السابق: ٥٤

ومن جانب آخر فقد قدمت مدينة بجاية مثالاً آخر على مساهمتها في النهضة الموحدية تمثل في شخصية الطبيب أبي اسحق إبراهيم الداني الذي ترجم له ابن أبي اصيبعه بصورة مقتضبة فقال: «كانت له عناية بالغة في صناعة الطب، وأصله من بجاية، وقفل إلى الحضرة وكان امين البيمارستان وطبيبه، وكذلك ولداه والأكبر منهما وهو أبو عبدالله محمد قتل في غزوة العقاب في الأندلس مع الناصر، وتوفي الداني في مراكش في دولة المستنصر بن الناصر»[1] وأضاف آخر أنه كلف فيما بعد بادارة مستشفى الجزيرة الخضراء[2].

ويكفي أن نعلم أن اختيار الخليفة يعقوب له أميناً للمستشفى التي بناها والتي ادهشت من شاهدها لهو خير دليل على تقدمه في صناعه الطب، أما المستشفى التي أصبح أميناً عليها فقد وصفها المراكش قائلاً: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما اظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه لخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه على احسن الوجوه...، وأمر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع المشمومات والمأكولات، واجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت... ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره.... وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والاكحال، واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء... وكان في كل جمعه بعد صلاته يركب ويدخله، يعود

---

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء، شبكة المعلومات العالمية (موقع الوراق): ١/ ٣٥٣.

(٢) الحسين – المرجع السابق: ١/ ١٥٦، نقلا عن عبد العزيز بن عبدالله.

المرضى ويسال عن أهل البيت بقول: كيف حالكم؟ وكيف القومه عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج[١].

يضاف إلى ذلك فقد احتضنت مدينة بجاية عدداً غير قليل ممن مكثوا منها من أمثال أبي الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحيه الكلبي الذي نعته الغبريني بـ «الشيخ الفقيه، المحدث الحافظ المتقن، النحوي اللغوي التاريخي»[٢] وكذلك المحدث أبو جعفر احمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي الأنصاري القرطبي (٥١٩-٥٨٢هـ/ ١١٢٥-١١٨٠م) الذي تجول في العدوتين ثم مكث في مدينة بجاية ما شاء الله واخيراً اختار فاس سكناً له[٣].

(١) المصدر السابق: ٣٦٤- ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٩.

(٣) الحسين - المرجع السابق: ٢/ ٣٠.

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي

في المغرب العربي والأندلس في العصر الوسيط

وجد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منذ عهود مبكرة في الأقطار العربية، وأصبح يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيدا يحتفل به المسلمون، وإذا كانت المعلومات التاريخية لا تقدم لنا البدايات الأولى للاحتفال بهذه المناسبة العظيمة، إلا أنه من المؤكد أن الخلافة العباسية في بغداد قد احتفلت به، يذكر ابن خلكان في وفياته أن ابن دحية السبتي ت ٦٣٣هـ ١٢٣٥م. وهو من أبرز علماء العصر الموحدي، لما رحل إلى المشرق قدم إلى اربل سنة ٦٠٤هـ وهو يتوجه إلى خراسان فشاهد الملك مظفر الدين ابن رزين الدين مهتما" بالمولد النبوي والاحتفال به، فألف له كتاب ((التنوير في مولد السراج المنير)) وقرأه عليه بنفسه وقد ختم الكتاب بقصيدةٍ طويلة أولها:-

لـــــولا الـــــوشـــــاةُ وهـــــمُ

أعـــــداؤنـــــا مـــــا وهـــــمـــــوا

وقد دفع له الملك ألف دينار[1]، كما شاهد الرحالة بن جبير سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م احتفال المسلمين به في مكة فقص لنا خبراً تحدث فيه

---

(١) ٣/٤٤٩ - ٤٥٠.

عن الموضع المقدس الذي ولد فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث يفتتح هذا الموضع المبارك (فيدخله الناس كافة متبركين به، في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه وهو يوم مشهور بمكة دائما)[١].

وزيادة على ذلك فقد اهتم الفاطميون في مصر وتونس باحتفالات المولد النبوي الشريف حتى ساد الاعتقاد بأنهم كانوا أسبق من غيرهم في حين أن حقيقة التاريخ غير ذلك[٢]. أما على صعيد المغرب والاندلس فأن الأشارات الاولى التي تسلط الضوء على الاحتفال بالمولد تشير إلى ما قام به قاضي سبتة أبو العباس أحمد بن محمد العزفي ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣م من دعوته إلى الاحتفال به والأسباب التي دفعته إلى ذلك، تلك التي أوردها في مقدمة كتابه الدر المنظم. اذ وقع في نفسه ان ((ينبه أهل زمنه على الاعتناء بمولد الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم رأى أن تلقين ذلك للنشء الصغير انجح وانفع، فاخذ يطوف على الكتاتيب القرآنية بسبته ويشرح لصغارها مغزى هذا الاحتفال، حتى يسري ذلك لآبائهم وأمهاتهم بواسطتهم))[٣].

ولما تولى ولده أبو القاسم محمد العزفي إمارة سبتة، حقق دعوة والده واحتفل في مدينة سبتة بالمولد النبوي في أول ربيع بعد ولايته عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩ م وقد وصف احتفالاته ابن عذاري بقوله ((ومن مآثرة العظام قيامه بمولد النبي ـ (ﷺ) ـ من هذا العام، فيطعم فيه اهل بلده الوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة المولد السعيد ـ بالصرف الجديد من جملة الاحسان عليهم والانعام وذلك لاجل ما يطلقون المحاضر والصنائع

(١) الرحلة، دار الكتاب (بيروت - القاهرة، بلا) ٩٣

(٢) المقريزي - المواعظ والاعتبار، مطبعة الساحل لبنان: م٢ / ٣٨٩.

(٣) المنوني - ورقات عن الحضارة المغربية، ٢٦٥-٢٦٦.

والحوانيت يمشون في الازقة، يصلون على النبي (ﷺ)، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع اهل البلد مدح النبي عليه السلام بالفرح والسرور والاطعام الخاص والعام، جار ذلك على الدوام في كل عام من الاعوام، وتوفي رحمه الله عام سبعة وسبعين فكانت مدته نحو ثلاثين سنه))[١].

وعمل بوصية الفقيه أبي القاسم العزفي الخليفة المرتضى الموحدي الذي كان يقوم ((بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام)) جاء ذلك بعد ان أرسل له أبو القاسم العزفي بنسخة من كتاب ((الدر المنظم في مولد النبي المعظم)) واشار بذلك الرأي عليه[٢].

ولما قامت الدوله المرينية في المغرب الاقصى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م بعد زوال حكم الموحدين منه، كان أول من احتفل بالمولد النبوي مؤسس دولتهم السلطان يعقوب بن عبد الحق، فهو اول من أقام ليلة المولد بعاصمتهم فاس، واستمع إلى القصائد والكلمات التي تخص هذه المناسبة الدينية الجليلة، ثم احتفل المغاربة في جميع بلادهم بالمولد النبوي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م على عهد ولده السلطان يوسف بن يعقوب[٣]، اذ شهدت السنة نفسها مراسيم الاحتفالات وبأشراف خطيب جامع القرويين في فاس محمد بن أبي الصبر، وبهذا صار يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيدا مولديا عاما بالمغرب ثم سار على نهجه السلاطين الذين حكموا البلاد من بعده نخص بالذكر منهم السلطان علي بن عثمان

---

(١) البيان المغرب، القسم الموحدي ٣/ ٤٠١ -٤٠٢

(٢) ابن عذاري - البيان المغرب، ٣/ ٤٥٢

(٣) أبن أبي زرع ـ الأنيس المطرب ٣٨٣، أبن السكاك ـ نصح ملوك الإسلام، ورقة ١٠٩.

٧٣١ـ٧٥٢هـ/ ١٣٣١ـ١٣٥٢م الذي أفاض المؤرخون بذكر مراسيم احتفالاته بالمولد النبوي وسجلوا القصائد ((المولديات)) التي أنشدها الشعراء بذلك اليوم تعظيماً لتلك المناسبة ومن بين المؤرخين الذين ذكروا احتفالات المولد على عهد السلطان أبي حسن علي بن عثمان المؤرخ ابن مرزوق الخطيب الذي قال ((لازمتُ حضوره والإختصاص بالإطلاع عليه من سنة ٧٣٨هـ.. فأذكر من عادته المستمرة ما حفظته كان ﷺ يقيمها سفراً وحضراً، لا يشغله عن إقامتها شاغل، حتى لقد كنا بسبتة مقيمين مقابلين لنزول النصارى على الخضراء وكان.. في تعبٍ وملازمةٍ مقاومة لجيوش المسلمين من أهل العدوتين.. فحضرت ليلة المولد، فلم يصل أهل البلاد قاطبةً على جري العادة، فإنه حيث كان يصل الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد لشهودها، ووصل من أهل فاس خطيبها.. فلما حضر وكان وصوله ليلة المولد، سأله، فاعتل لما سمعوا إشتغال السلطان بمهم الجهاد، فتخلفوا، فتغير لذلك ﷺ وسأل زعيم المزمزمين.. فأخبره بذلك عن بقية أهل صنفه، فصدر أمره بإيقاف جرايات من لم يصل تنبيهاً لهم على أنهم أخطاؤا إذ ظنوا به لاشتغال عن هذا المهم، وأمر بعقوبة المتخلفين من المزمزمين.. ومن العادة أن يستعد لها بأنواع المطاعم والحلاوات وأنواع الطيب والبخور مع إظهار الزينة والتأنق في إعداد المجالس، حتى إذا حلت الليلة وادى السلطان صلاة المغرب ونافلتها حضر السلطان والناس حسب مراتبهم إلى مكان الاحتفال فتقدم لهم المأكولات والحلويات، ثم يبدأ بعد ذلك قارئ العشر فيرتل حصة من القرآن الكريم ويتلوه عميد المنشدين فيؤدي بعض نوبته، ثم يأتي دور الشعراء، فيلقون قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم، من نظم شعراء المملكة والزائرين، فتلقى على نظام محفوظ، وترتيب محكم على قدر المنازل والرتب والمناصب وبعد هذا تسرد المعجزات

النبوية .وتكثر الصلاة على سيدنا محمد (ﷺ) فأذا قضيت صلاة الصبح تقدم الوان الطعام المختصة بهذا الوقت، وجميع ما يفضل من بخور وشموع يقتسمه الفقراء والمسافرون على قدر استحقاقهم، ثم يجري توزيع العطاء صباح يوم سابع المولد على الاشراف واعيان الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين، فيعطي كل على قدره كسوة تخصه واحسانا للبعض..))(١)

ولقد أخبرنا ابن الحاج النميري أن السلطان أبو عنان المريني لما دخل قسنطينة أمر باجراء بعض الاعمال كان من بينها ما يخص ليلة مولد النبي (ﷺ) فأشاع مواسم الفرح وأوقد الشموع وأمر أن تقاسم الموائد للعامة، يرافق ذلك المغنون لامتداح من خصه الله بالتعزيز والتوقير(٢).

ومن مظاهر الاحتفال بالمدارس المرينية بهذه المناسبة قيام كل والد بأعطاء ولده شمعة كبيرة تساوي مبلغاً من المال يصل وزن بعضها «ثلاثون رطلا» حسب ثروة الأب، توقد أول الليل حتى الشروق، ويأتي المعلم بعددمن النشدين يتغنون بالاناشيد النبوية طول الليل(٣). وزيادة على ذلك فقد ادخلت ((المنكانة)) وهي الساعة الميكانيكية لتخبر بالمواقيت تتكون من اثني عشر طاقا يعلوها هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية فأذا حلت ساعة ما اعلن عنها الطائر الجاثم

---

(١) المسند الصحيح الحسن: ١٥٢ -١٥٤.

(٢) فيض العباب: ١٤٩ - ١٥٠؛ الماحي - المغرب في عصر السلطان أبي عنان ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) أي يقدر وزنها بعشرة كيلو غرامات تقريبا. ينظر الحسن الوزان ـ وصف أفريقيا: ٢٦٤.

على الساعة بواسطة صنجة تلقى على طست فتظهر جارية في يمينها رقعة بالساعة المحددة لتضعها بين يدي أبي عنان، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة[١].

وقد كان لاحتفالات المرينين بالمولد النبوي صدى عند الدول المجاورة، فقد سعى الحفصيون في تونس على عهد سلطانهم أبي يحيى ((على إقامة رسمه على العادة الغربية، من الاحتفال في الاطعمة، وتزيين المحل، بحضور الاشراف، وتخير القوالين للاشعار المقرونة بالاصوات المطربة))[٢]. أما في الاندلس، فقد احتفلت غرناطة بالمولد النبوي منذ عهد سلطانها يوسف الاول ٧٣٣ـ٧٥٥هـ، أكدت ذلك القصائد الثلاثة التي رفعها الشاعر لسان الدين بن الخطيب إلى سلطانه بمناسبة الاحتفال النبوي ومطلع الأولى:

أثار سناها والديار نوا رح

سنا بارق من مطلع الوحي لائح

والثانية:

هاجتك اذ جئت الورى فزرودا

ذكراك اوطاناً بها وعهودا

---

(١) محمد المنوني ـ المولد النبوي الشريف في المغرب المريني في كتاب ورقات عن الحضارة المونية ٢٦٩.

(٢) أبو الحسن النباهي، المرقبة العليا،، ١٦٢ منشورات دار الافاق الجديدة (بيروت ٩٨٣).

والثالثة التي انشدها سنة ٧٣٧ هـ:

اذا انـا لـم أؤثـر هـواي عـلـى عـزمـي
فـنـفـسـي فـي طـوعـي وأمـري فـي حـكـم(١)

وسار ولده محمد الخامس الغني بالله على نهج والده يقول ابن خلدون ((ثم حضرتُ المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتفلُ في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعراء، إقتداءً بملوك المغرب، فأنشدته ليلَيَئذٍ:

حـي الـمـعـاهـد كـانـت قـبـل تـحـيـيـنـي
بواكف الدمعِ يرويها ويضمينيِ(٢)

وكان للسلطان العبد وادي موسى الثاني المكنى بابي حمو (٧٦٠ - ٧٩١ هـ / ١٣٥٩ -١٣٨٩م) البدء بالاحتفالات النبوية في المغرب الاوسط، وقد عرض لنا المقري وصفا لاحتفالات المولد النبوي بقوله ((كان يقيم ليلة الميلاد النبوي صاحب الصلاة والسلام بمشوره من تلمسان المحروسة، مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالاسطونات، وموائد كالهالات ومباخر صفر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر من تبر مذاب، ويفاض على الجميع انواع الاطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة تشتهيها الانفس وتستلذها النواضر، ويخالط حسن رياها الارواح ويخامر، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال..

(١) لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيب والجهام ٣٦٧-٤٨٤-٥٧٥.

(٢) ابن خلدون – العبر: ٧/ ٨٨١؛ المنوني – ورقات عن الحضارة المغربية، ٢٧٩.

وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفرات ترغب في الاقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن اسلوب إلى اسلوب. ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب وبالقرب من السلطان.. خزانة المنجانة (المنكانة) قد زخرفت كأنها حلة يمانية،لها أبواب موجفة، على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من ابوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة بأسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادي حي على الفلاح))[١].

وذكر التنسي[٢] أن السلطان أبا حمو كان ينظم في كل ليلة مولد قصيدة في مدح المصطفى واول ما يبتدئ المسمع في ذلك الحفل العظيم بأنشاده ثم يتلوه انشاد من رفع إلى مقامه في تلك البليلة نظماً ومما قاله في بعض تلك المواليد الشريفة قوله:

قـفـا بـيـن أرجـاء الـقـبـاب وبـالـحـي
وحـي ديـارا لـلـحـبـيـب بـهـا حـي

وعـرج عـلـى نـجـد وسـلـع ورامـة
وسائل فدتك النفس في الحي عن حي[٣]

---

(١) المقري - ازهار الرياض: ١/ ٢٤٣. نفح الطيب: ٩/ ٢١٥ -٢١٦ ١٦

(٢) التنسي نظم الدرّ، مقدمة المحقق ؛ ٢٧- ٢٨.

(٣) التنسي، نظم الدرّ ١٦٤.

وزيادة على ذلك فقد شاعت الاحتفالات بالمولد النبوي على عهد الدول التي حكمت المغرب، فيذكر ان للسعديين وبوجه خاص على عهد المنصور السعدي تقاليد رسمية وشعبية تناولها بالعرض الوافي مؤلف كتاب مناهل الصفا، أشار فيها إلى الاستعدادات الكبيرة التي تبذلها الدولة السعدية لهذه المناسبة العظيمة ابتداء من دخول شهر ربيع الاول، فتستعد لها الاوساط الرسمية والشعبية بالشموع والقصائد والمديح النبوي حتى اذا كانت ليلة الميلاد بدأت مراسيم الاحتفال الرسمي بحضور السلطان لأداء صلاة الفجر بالناس ثم يجلس على أريكته، وقد ازدهى الحفل باعلام الدولة، وجمال المشهد وبأصطفاف جذوع الشمع الموازية للمآذن والنخيل ضخامة وتعددت الوانها بين بيض وحمر وخضر وقد تقسمت جذوعها قباب مستديرة وبعد مجموعة من المراسيم الاخرى، يتقدم أهل الذكر والانشاد يقدمهم مشايخهم من بعد أن يفرغ الواعظ من قراءة ما يناسب المقام من الاستفتاح لفضائل النبي (ﷺ)، ثم يردد المحتفلون المولديات يعقب ذلك كلام القوم من المتصوفة تتخلل ذلك نوبات المنشدين لبيتين من نفيس الشعر يتحينون به المناسبة ثم يحضر الشعراء لإنشاد قصائدهم.

بعدها تعطى الجرايات والاحسان لكتاب الدولة والشعراء، بعد أن ترش على المحتفلين ((ماء النعيم المصعد من نثير الورد والأزهار)) ثم تمد بعد ذلك من أبواب القصور السلطانية الموقعة بأمر السلطان[١]

بقي أن نذكر إلى أن الاحتفال بالمولد رافقه نتاج غزير كتبه علماء المغرب منذ القرن السادس للهجرة، يقسم على ثلاثة فنون اوله في السيرة ومنها كتاب شفاء الصدور لأبي الربيع سليمان بن سبع دفين سبته والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ونهاية السول في خصائص

---

(١) مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، أبو فارس عبد العزيز القشتالي - تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف ((الرباط ١٧٢ - ٢٣٥-٢٥١))

الرسول لإبن دحيه دحيه السبتي وثانيها في الموالد يتقدمها كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم للعزفي وثالثها الشروح والحواشي والمقصود بها الشروح التي وضعت على أشهر قصائد المديح النبوي نذكر منها شرح البردة لسعيد بن سليمان السملالي المتوفى سنة ٨٨٢هـ وشرح عبد العزيز الفشتالي لمقصورة عبد الرحمن المكودي النحوي المشهور المتوفى ٨٥٧هـ والتي يقول في أولها.

أرقـــنـــي بـــارق نـــجـــد اذ ســـرى

يـــومـــض مـــا بـــيـــن فـــرادى وثـــنـــى

اما في ميدان الشعر فقد ظهرت كتب مشهورة في السيرة كارجوزة أبي على حسن الرهوني المراكشي المتوفى سنة ٦٦١ هـ وهي طويلة تنيف على ستة الاف بيت، والمعارضات والتخمسيات وما اليها وهي كثيرة منها وتريات ابن رشيد البغدادي التي عارضها حمدون بن الحاج، وقد تأثر بها مالك بن المرحل السبتي بوترياته التي يقول أولها:

إلـــى أحـــمـــد اهـــديـــت غـــر ثـــنـــائـــي

فـــيـــا طـــيـــب اهـــدائـــي وحـــســـن ثـــنـــائـــي

كما ظهرت دواوين خاصة بالمديح النبوي منها ديوان ((نوادر النظام في شرف سيد الانام)) لمحمد بن القاسم السلوي من اهل القرن التاسع فضلاً عن الانماط الاخرى من قصائد مفردة وموشحات وملحون[١].

(١) للمزيد عن هذه المواضيع ينظر عباس الجراري – الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ط٢ مكتبة المعارف (الرباط، ١٩٧٩) ١/ ١٤٧ -١٦٧.

رحلة (الإكسير في فكاك الأسير)
لمحمد بن عثمان المكناسي ١٢١٢هـ/١٧٩٨م
قراءة سياسية تاريخية

اهتم الأندلسيون والمغاربة بتدوين الرحلات وتخصصوا في هذا الفن، وفرعوه إلى أقسام كثيرة، وبجانب هذه الرحلات ظهرت الرحلات السفارية، فقد كتب فيها أبو الحسن علي بن محمد التمكروتي الذي سافر إلى عاصمة العثمانيين وكتب الغزال في عهد محمد بن عبدالله رحلته إلى اسبانيا لعقد صلح مع شارل سماها «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، وأبو القاسم الزياني المتوفي سنة ١٢٤٩هـ - ١٨٠٩ م) رحلته الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، وغيرهم ممن سافر إلى اوربا للبحث عن تقدمها وتطورها»[١].

لقد مثلث الرحلات السفارية الناحية الرومانتيكية في ادبنا العربي، فيما اتسم في جملته بسمة الكلاسيكية، ومايهمنا من ذلك الرحلات السفارية وهي التي تكون الغاية من سفر صاحبها توجهه في اسفار رسمية يقوم احدهم بعد ذلك بتسجيلها كما يفعل الصحفيون الذين يصحبون الرؤوساء في تنقلاتهم[٢]

---

(١) خالد بن عيسى البلوي -تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تقديم وتحقيق الحسن السائح، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي (المغرب: دت): ٨٩.

(٢) محمد بن عثمان المكناسي -الاكسير في فكاك الاسير، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي (الرباط: ١٩٦٥)ا- ز.

ومن ابرز تلك الرحلات رحلة محمد بن عثمان المكناسي المتوفي سنة ١٢١٢هـ -١٧٩٨م الموسومة بـ(الاكسير في فكاك الاسير) "ففي رحلته يصف الحياة الاسبانية في المائة الثامنة عشرة، وسيكشف البحث عن الجوانب السياسية والتاريخية والحضارية الاخرى التي سجلها في مرحلة تاريخية مهمة يكتنفها الغموض وتقل فيها المصادر.

اولاً: حياته ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالوهاب بن عثمان المكناسي نسبة إلى مدينته مكناس، كان من بيت علم و جاه، عمل والده مورقا وواعظا في احد مساجد المدينة وقام ولده بالنيابة عنه في شبابه بهذا التوظيف، فظهرت نجابته فيها في دولة السلطان محمد بن عبدالله (١٧٥٧-١٧٩٠م) العاهل الجديد في الدولة العلوية الذي كان ميالاً إلى السلم والعدل اللذين كان المغرب الأقصى في أشد الحاجة اليهما بعد ماعانى من اضطرابات طيلة ثلاثين سنة ومن بين اعماله انه اجبر البرتغاليين على اجلاء مزغان اخر معقل لهم سنة ١٧٦٩م لكنه فشل في حملته على مليلة رغم مابذله من جهود فضلا عن سعيه إلى اتباع سياسة التقارب مع تركيا و فرنسا في آن واحد كما اتبع سياسة اقتصادية هدفها جلب الاجانب نحو موانئ المغرب و تنشيط المبادلات مما يضمن وحدة تزويد الخزينة المتدهورة[١]

لقد تدرج أبو عبدالله المكناسي في وظائف الدولة و ظهرت براعته بمهمة سرد الكتب بالقصر السلطاني ثم كاتبا بالحضرة مدة ليست يالقيلة لانعرف ابتداء عمله في الادارة المخزنية العليا وقد نال مكانة طيبة على

---

(١) شارل ادريا جوليان -تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير ابن سلامة (تونس: ١٩٨٥)٢/ ٣٠٩-٣١٢.

عهد سلطانه ومن بين اولى المهام التي اوكله بها السلطان محمد بن عبدالله توجيه كاتبه ابن عثمان سنة ١١٩٣هـ-١٧٧٩م إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث في شان عقد معاهدة لتجديد الصلح بين دولتيهما ولافتكاك الاسرى الذين كانوا بإسبانيا[١] وهي الرحلة التي سماها (الاكسير في فكاك الاسير) وقد توجه من عند سلطانه وهو في رباط الفتح في ٢٠ شوال سنة ١١٩٣هـ -٣١ اكتوبرسنة ١٧٧٩، وقد ظلت مجهولة الخبر ولم نعرف عنها شيئا الا عن طريق الكتاب الغربيين، وما أورده هو عن نفسه في سفارته إلى تركيا[٢] المسماة «**احراز المعلى والرقيب** في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب ويذكر ابن سوده المري أن السلطان سيدي محمد بن عبدالله قد وجهه سفيرا إلى الاستانه وامره بعد ذلك ان يتوجه إلى الحجاز لتقديم الهدايا السنوية التي كان يبعثها السلطان للحرمين الشريفين»[٣] ونتيجة للنجاح الباهر الذي حققه فيها عينه بعد عودته وزيرا ثم وجهه بعد مضي ثلاث سنوات في سفارة ثانية إلى إسبانيا وإلى مالطا ونابلي لافتداء المسلمين المأسورين بهاتين الولايتين، وقد ألف عنها ابن عثمان رحلة سماها «البدر السافر في افتكاك الاسارى من يد العدو الكافر» وكانت هذه السفارة تحمل معها من المال مايزيد على ٨٦,٠٠٠ ريال وكان وقت خروجها من مراكش في ثاني ذي الحجة سنة ١١٩٥هـ-١٧٨١م

---

(١) محمد ابن سودة المري -دليل مؤرخ المغرب الاقصى ط٢ دار الكتاب (الدار البيضاء: ١٩٦٩)٢/ ٣٣٤.

(٢) محمد الفاسي -مقدمة الاكسير في فكاك الاسير لمؤلفه محمد بن عثمان المكناسي، المركز الجامعي للبحث العلمي (الرباط-١٩٦٥)ظ.

(٣) توجد في خزانة المؤرخ عبدالرحمن بن زيدان نسخة فريدة منها وقد اعطاها للمؤرخ محمد الفاسي عندما كان بباريس فكتب بحثا على مؤلفاتها، دليل مؤخ المغرب: ٢/ ٣٣٤.

حيث ابرم ابن عثمان المعاهدة باسم سلطانه بتاريخ ١٢ذي القعدة سنة ١١٩٦هـ اكتوبر سنة ١٧٨٢م وهي تتضمن خمسة فصول تؤكد الصلح و السلام بين المغرب وممالك فرناندو الأول[١].

ثم عينه السلطان محمد بن عبدالله بعد رجوعه من ايطاليا سفيرا إلى الدولة العثمانية فوجهه إلى اسطنبول في مهمة تتعلق بحدود المغرب وبعد قضاء غرضه يتوجه للحرمين الشريفين بهدايا ثمينة لاشراف الحجاز ولغيرهم وقد دامت هذه الرحلة عامين وسبعة اشهراذ كان ابتداؤها يوم (٤) نوفمبر ١٧٨٥ وعاد إلى فاس يوم (٤) يونيه ١٧٨٨م وما إن عاد من مهمته حتى كلفه سلطانه بمرافقة جماعة من الأسرى الجزائريين الذين اطلق ملك اسبانيا سراحهم كهدية قدمت لملك المغرب وهو مايدل على نجاحه في تادية واجباته التي يكلف بها[٢]، وقد ذكر الناصري أن ما انفقه السلطان محمد بن عبدالله على الاسرى من الاموال اكثر من ذلك كله حتى لم يبق في دار الكفر اسير من المسلمين وقد بلغ عددهم في سنة ١٢٠٠هـ-١٧٨٦م ثمانية واربعين ألف أسير وزيادة»[٣]

توفي السلطان محمد بن عبدالله وخلفه ولده اليزيد (١٧٩٠-١٧٩٢م) الذي شهد عهده أعمالا تعسفية بل انه دخل في نزاع مع الاسبان بسبب ايقافه اعتباطا قنصلي اسبانيا بموفدور والعرائش وبروز علائم التمرد التي لاحت في الجنوب اذ نودي باحد اخوته سلطانا على مراكش فيما استولى أخ له آخر يدعى عبدالرحمن على تافيلالت[٤]

(١) عبدالرحمن ابن زيدان - اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس (الرباط - ١٩٢٩): ٣/ ٣٢٠.

(٢) الفاسي- مقدمة الاكسير: م،ن.

(٣) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى (الدار البيضاء: ١٩٥٤): ٤/ ١٢١.

(٤) جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية: ٢/ ٣١٢-٣١٢

وخلال هذه المدة لم تشر المصادر إلى مصير ابن عثمان حتى اكتشفت وثائق في مدريد تفيد ان اليزيد قد وجهه سفيرا إلى كارلوس الرابع ملك اسبانيا بطلب منه وبعد بضعة اشهر من مكوثه هناك عزل عن مهمته وكلف بدلا عنه ابن عم السلطان علي بن احمد بن ادريس بن اسماعيل ولكن ابن عثمان لم يغادر اسبانيا و بقي يحاول حل المشاكل بين الدولتين فكلفه السلطان من جديد بالسفارة و لم يرجع إلى المغرب حتى بلغه خبر وفاة سلطانه، حيث نال حظوة من لدن السلطان الجديد للمغرب[١]

بويع السلطان سليمان بن محمد يوم الاثنين ١٧ رجب ١٢٠٦هـ/ ١٢ مارس١٧٩٢م على فاس الذي عالج الفتن الداخلية بحكمته ومنها منافسة ثلاثة من اخوته ولم ينفك طيلة سنوات حكمه الطويلة يوالي سعيه لحفظ الامن و لكن من دون جدوى ولكن مما يحفظ له انه ادام علاقات طيبة مع جيرانه و منها الدول الاوربية حتى انه التزم سنة ١٨١٧م بابطال القرصنة في المناطق التابعه له[٢].

لقد حافظ السلطان سليمان على مكانة ابن عثمان و كان يقدره ويعلم مواهبه الدبلوماسية فاوكل اليه منصبين مهمين: النيابة عنه في الاتصال بالسفراء الاجانب الذين كانوا يقيمون بطنجة و تطوان وكان ذلك بعد ثمانية اشهر من مبايعته حسبما جاء في رسالته السلطانية التي وجهها إلى قناصل الدول الاوربية و تاريخها في ١٦ربيع الاول سنة ١٢٠٧هـ -(٢٢) اكتوبر ١٧٩٢م[٣].

(١) الفاسي -مقدمة الاكسير.. ن

(٢) جوليان - تاريخ افريقيا الشمالية: ٢/ ٣١٣-٣١٤

(٣) الفاسي -مقدمة الاكسير..ص ض

ومن جانب اخر فقد ادى الوزير ابن عثمان مهمات داخلية في بلاده على عهد سلطانه سليمان، فقد بعثه الاخير إلى مدينة اسفي لابلاغ القائد عبدالرحمن بن ناصر الخارج عن سلطته يدعوه إلى القدوم إلى السلطان و تقديم الطاعة و الولاء و الا وجه له جيشا لمحاربته وقد نجح ابن عثمان في اقناع القائد عبدالرحمن فكتب بيعته إلى السلطان وظل في مدينته بسبب مرضه فقبل السلطان عذره[١].

ولم تتوقف جهوده الدبلوماسية عند هذا الحد فقد بذل نشاطا مهما في اشاعة السلام بين المغرب و جيرانه اذ ابرم معاهدة سلم و تجارة و ملاحه مع اسبانيا و نجح في ذلك وتم الاتفاق على معاهدة سنة ١٧٩٩م[٢]..

وبهذه الاعمال الجليلة تختتم حياته ليقع ضحية و باء الطاعون الذي اجتاح بلاده، فجعل المؤرخ ابن زيدان وفاته سنة ١٢١٢هـ-١٧٩٨م بينما يرى الفاسي استناداً إلى ماقدمه رينو في أبحاثه المنشورة في مجلة هيسبريس حول الاوبئة بالمغرب ان الوفاة قد وقعت سنة ١٢١٣م الموافق سنة ١٧٩٩هـ ليخلص إلى نتيجة مفادها أن وفاة ابن عثمان وقعت بين فاتح مارس و الرابع و العشرين من يوليه او اواخر يونيه وهو مايوافق شهر محرم سنة ١٢١٤م[٣].

ثانياً: طريق الرحلة ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

يصف الوزير ابن عثمان المدن التي مر ها بعد خروجه من رباط

(١) أبو القاسم الزياني -الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور برا وبحرا حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي ١٩٦٧، الفاسي -مقدمة الاكسير.. ع غ

(٢) الفاسي -مقدمة الاكسير.. ع غ ف

(٣) الفاسي -مقدمة الاكسير.. ف ق

الفتح، وأول مدينة نزل بها هي سبتة[١] حيث وصلها في ٤ ذي القعدة سنة ١١٩٣ هـ - ١٣ نوفمبر سنة ١٧٧٩م، واستقبله اهلها، ثم نزل بدار هي من افضل ديارهم المنسوبة إلى ملكهم - ليقضي بها مدة الحجر الصحي وهي اربعة وعشرين يوماً والمسماة عندهم بـ «الكر نطينة» (Cuarantena)، كما وصف التحصينات العسكرية التي قام بها الاسبان خشية من غارات المسلمين، واعداد الجند، وذكر ان من بينهم من اهل الجرائم والجنايات من الاسبانيين وعددهم الفان، حيث ينفون إلى سبتة ومليلة او وهران أو حجرة النكور ليقضوا مدة محكوميتهم، وعدد ديارهم ٩٤٨، ومن الكنائس ثمانية[٢].

وبعد إقامته بسبته مدة سبعة وعشرين يوماً، توجه إلى قالص «قادس»[٣] لكن الريح أعادتهم ثانية إلى سبتة ومكث هو ومن معه بمرساها أربعة أيام وفي اليوم الخامس سافر ووصل المدينة بعد الظهر[٤] لكنه بات في المركب استعدادًا ورغبة من صاحب قادس في استقباله، وقد وجد في مرساها ماينيف على الخمس مائة مركب وقد اخبر ان المراكب قليله بها اليوم من اجل الحرب الدائرة بين الإنكليز والإسبان[٥]، وكان

---

(١) سبتة: مدينة مغربية تقع في اقصى الشمال الشرقي لشبة الجزيرة الطنجة على الضفة الجنوبية لمدخل المضيق الذي يوصل البحر الابيض المتوسط بالمحيط الاطلسي، وهي تقابل الجزيرة الخضراء للمزيد ينظر محمد عبد المنعم الحميري - الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس ط ٢(بيروت: ١٩٨٤) ٣٠٣.

(٢) الاكسير: ٧-١٤.

(٣) قادس - جزير ة تقع في الاندلس بالقرب من اشبيلية وبها مزارع كثيرة الريع وتسمى بـ Cadiz للمزيد ينظر الحميري -الروض المعطار: ٤٤٨-٤٤٩

(٤) الاكسير ١٩-٢٠

(٥) ترجع أزمة بين الدولتين بسبب استيلاء إنكلترا على جبل طارق في جنوبي اسبانيا سنة ١٧٠٤ م، وبسبب ذلك ظلت إسبانيا حليفة لفرنسا ولما كانت انكلترا في حرب مع فرنسا سنة ١٧٩٧م تحالفت إسبانيا مع فرنسا وهذه الحرب هي التي يشير إليها وقد انهزمت فيها البحرية الاسبانية

مقامه بقالص يومين لقي فيها ترحاباً وحفاوة عظيمتين، أما المرسى فهو مدينة كبيرة بناؤها كله بالحجر ولسائر دورها شبابيك من الحديد، وسككها في غاية الاستقامة مرصعة بالحجارة،وفي جميع أزقتها المصابيح المسماة بـ«الفنار» «الفانوس» وفيها من الحرف والصفائح الكثير إلا أن أزقتها نتنة الرائحة[١].

وفي يوم الثلاثاء ١٢ ذي الحجة سنة ١١٩٣هـ-٢١ ديسمبر سنة ١٧٧٩م غادر قالص، وبعد ساعة بالسير الحثيث دخل مدينة ليزله ذي اليون Isla de leon وهي مدينة صغيرة[٢]، ثم مدينة البورط ذي سنة مريه Puerto desanta Maria[٣] (أي مرسى القديسة مريم) وهي على بعد ثلاث ساعات من قالص، ثم إلى مدينة خيرز[٤] (شريش)[٥] وهي مدينة متوسطة حيث نزل بدار حاكمها الذي لم يجد مكاناً أفضل من داره لضيفه تعظيماً له واكراماً لمرسله، وفي اليوم التالي سار حتى وصل تربة الكبسات التي تبعد ثمان ساعات من شريش بعد مشقة عظيمة ثم سار فوصل قنظره مينية على خليج من الوادي الكبير المار بإشبيلية وبينهما وبين قرية الكبسات ثلاث ساعات، وسار من الدار التي استراح فيها قاصداً مدينة إشبيلية إلى وصلها بعد غروب الشمس على عشر ساعات من القرية ثم سافر من اشبيلية يوم

(١) الاكسير: ٢١-٢٥.

(٢) يقول الفاسي انها مدينة شريش وقد استرجعها الاسبان نهائيا سنة ١٢٦٤ م وبينها وبين اشبيلية ٩٧ كم الاكسير: ٢٧ هامش ٣.

(٣) الاكسير: ٣٠-٣٣، ٤٩.

(٤) الاكسير: ٣٠.

(٥) شريش: Jerez مدينة كبيرة تقع على مقربة من مصب نهر وادي لكته في المحيط الاطلنطي للمزيد عنها ينظر محمد عبدالله عنان -الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ط٢، نشر مؤسسة الخانجي (القاهرة: ١٩٦١)، ٢٩٧-٣٠٠.

الاثنين ١٢ من ذي الحجة سنة ١١٩٣هـ ٢٠ ديسمبر ١٧٧٩ م، بعد ان قضى بها يومين (٢٤) وبعد ساعة وصل إلى قرمونة Carmona[١] ثم مدينة استجة Ecija[٢] بعدها سافر ووصل مدينة قرطبة Cordoba[٣] ثم مدينة الكاربا Elcarpio ثم إلى مدينة اندخر Andu.ar[٤] ووصل إلى قرية بيرن Bailenثم إلى قرية لريل كرلينة Carolina ثم إلى قرية سنط كروزو مديلة Santa Cruzde Mudela[٥] ثم إلى قرية منسنارس Manzanares del Moute ثم وصل إلى قرية ارنسيه على سبع ساعات ثم إلى قرية طملك الواقعة على بعد سبع ساعات ثم إلى قرية لوردية[٦]، ثم إلى مدينة ران خويز Aranjuezs وهي مدينة اتخذها ملكهم للتنزه والاصطياد[٧] ثم سار باتجاه مدريد حيث يقول: «وهكذا إلى مدريد مسيرة ست ساعات... وفيما بين هذه المدينة ومادريد مدائن اخرى ومداشر لا تحصى» وكان دخوله مدينة مدريد عشية يوم الاربعاء ٤ محرم سنة ١١٩٤ هـ -١٢ يناير سنة ١٧٨٠ م حيث أقام هنالك اثني عشر يوماً.

أما في عودته فقد انطلق من مدينة رانخويز قاصداً طليطله بعد نصف

(١) قرمونة Carmona تقع على مقربة من جنوبي نهر الوادي الكبير في شمالي شرقي اشبيلية على بعد اثنين وثلاثين كم منها في بسيط من الأرض، عنان -الاثار الاندلسية الباقية ٧١-٧٤.

(٢) استجة Ecija تقع على الضفة اليسرى لنهر شنيل فرع الوادي الكبير في بسيط اخضر، وهي من اعمال اشبيلية، عنان -الاثار الاندلسية الباقية: ٧٦-٧٩.

(٣) الاكسير ٥٥-٦٥.

(٤) الاكسير ٦٨-٧١

(٥) الاكسير ٧٢-٧٣

(٦) الاكسير ٧٧-٧٩

(٧) الأكسير

الليل من يوم الاثنين مهل جمادى الثاني من سنة ١١٩٤ هـ ٤ يونيه سنة ١٧٨٠م[١] وبعد مروره بقرى كثيرة ومدن صغيرة وصل مدينة الش Elche[٢]، ثم اوريوله Orihuela وهي طرف عمالة بلنسيه ثم إلى بلده مرسية وهي مدينة متوسطة مؤسسة على وادي شقورة ثم سافر حتى وصل مدينة قرطخنة وهي مدينة متوسطة إلى الكبر أميل على حد وصفه.. مؤسسة على البحر الشامي ولها مرسى عجيب ثم توجه بعدها ووصل إلى قرية يقال لها الفوينت ذي الم تقع على أربع ساعات من قرطاجنه ثم إلى قرية يقال لها ططانة ثم إلى مدينة لروقه وهي بلدة تميل إلى الكبر، ثم وصل إلى بلدة باصة ومدينة وايس وهي من بقية مدن المسلمين ثم اشرف بعدها على مدينة الحمراء في غرناطة كما وصفها، ثم سافر مسيرة ساعتين وتوجه إلى مدينة «لوشة» بعدها مر على مجموعة من القرى مثل قرية لابريخة ثم إلى مدينة خيرز ثم إلى بلدة مدينة ثم قصد مدينة طريفة «طريف» وفي اليوم التالي ركب المركب باتجاة سبتة فنزل بعد ساعة ونصف بمرساها، حيث اقام بها ستة وثلاثين يوماً حيث كان ذلك بناء على اوامر سلطانيه وردت من المغرب لقضاء اغراض وردت فيها عليه عدة رسائل من سلطان المغرب[٣].

ثالثاً: المضامين السياسية والدبلوماسية بين الدولة العلوية واسبانيا في رحلة الاكسير:

يصف الوزير ابن عثمان اسبانيا في القرن الثاني عشر للهجرة - الثامن عشر للميلاد وصفاً دقيقاً، ويستعمل لغة بسيطة مناسبة للتعبير عما يراه من مظاهر حضارية، وأن كان لايتجنب استعمال الالفاظ العامية اما

---

(١) الأكسير ١٤٥

(٢) الاكسير ١٥٧

(٣) الاكسير ١٥٩، ١٦١-١٦٦، ١٦٧-١٦٩، ١٧١-١٨٣، ١٩٠

الالفاظ الاسبانية فانه يذكر ها مع ترجمتها إلى العربية في الغالب، فهو يستهل حديثه في رحلته بمقدمة يبين فيها اهتمام سلطانه بفعل الخيرات، ومواساة اهل الحاجات، فيقول: «وكان ممن اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده والسعي في الصلاح في أرض بلاده، والبحث عن أسارى المسلمين الذين كانوا بايدي الكافرين وقد كان عند النصارى الاصبنيول (أي الاسبان على حد تعبير المغاربة) قبل هذا من اسارى المسلمين عدد كثير...وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس والجزائر وعمالاتها... فبعثنى ادام الله أيامه... للبلاد الاصبنوليه والى عظيمها، واصحبني... عشرة الاف مثقال [١]من سكته، ليأخذ كل أسير حظه من صلته»[٢].

وفي مدة اقامة الوزير ابن عثمان بسبته ورد عليه اسارى المسلمين، ووجد منهم هنالك ثلاثة وعشرين، والتقى بهم، وأكد ان الغرض من سفارته هي سراح اسارى المسلمين، ولما وصل سنط مرية لقي حاكمها فقال عنه: «وهذا الحاكم المذكور هو عدو الله الذي غزا الجزائر في البحر سنة ١١٨٩هـ - ١٧٧٥م في خمسة وعشرين الفاً، ونزل في البر بقرب الجزائر بنحو ميل، ورجع إلى بلاده مدحوراً»[٣].

ولما كان الغرض من سفارته تفريق الصدقة على اسارى المسلمين، فقد طلب الوزير من ملكهم السماح له بتادية تلك المهمة سيما وان مقامه قد طال بمدريد فاذن له وهيا له ولاصحابه «الاكداش» وامر

---

(١) يذكر الفاسي ان المثقال ايام السلطان محمد بن عبدالله كانت قيمته ٢٩ غراماً من الفضة، اي من عشرة الاف المثاقيل تساوي من عملة اليوم تقريبا سبعة ملايين وخمسين ومائتي الف فرنك مقدمة الاكسير هامش ٢ص ٦.

(٢) الاكسير: ٥-٦.

(٣) ٣٩ - الاكسير: ١٥، ٢٨-٢٩.

طائفة من عسكره بالتوجه مع السفير، فتوجه الوزير ابن عثمان من مدريد إلى اشقوبيه يوم الاحد ١٠ ربيع الثاني من سنة ١١٩٤هـ -١٥ ابريل ١٧٨٠، وقد عزلوا الاسرى في تلك البلاد لبعدها عن البحر لئلا يفرون، وفي طريقهم دخل دير «الاسكوريال» ووصفه وصفاً دقيقاً بما فيه، وما يحتويه من ذخائر ثمينة، ومنها خزانة كبيرة في غاية النظافة والصون بها كتب المسلمين التي بقيت بايديهم «وعدتهم الف وثمانمائة سفر فيها نسختان من المصحف الكريم وعدة تفاسير جلهم حواشي وكثير من كتب الطب»[١].

وعند وصولهم مدينة شقوبيه التي تبعد مسيرة ثمان ساعات عن الاسكوريال فاذا هي مدينة قديمة، ومن الغد ورد على السفير المغربي حاكم القصبة المسماة بالقصر الذي به اسارى المسلمين، واخذه إلى محل الاسرى واخرجهم اليه ودفع لكل واحد منه حظه من الصدقة ومقدارها خمسة مثاقيل للواحد، كما بين لهم المساعي التي يقوم بها سلطانه لانقاذهم من الاسر وان سلطانه سيتكلم بعد هذا مع صاحب الجزائر، وقد سروا بذلك وبعد عودته من زيارتهم سرح ملك اسبانيا اثنين من الرؤوساء الماسورين تقديراً له، بينما أبقى الاخرين بانتظار فديتهم لان له امثالهم في الجزائر [٢].

وفي مرسى قرطجنة «قرطاجنة» التقى أسرى المسلمين وأخبرهم بقوله: «إننا تكلمنا بأمره الشريف مع الطاغية في شان فدائكم بالمعاوضة بالاسارى الصينيول الذين بالجزائر.. وقد كتب سيدنا إلى عامل الجزائر في شان الفداء» ثم أعطاهم صلة السلطان المغربي، ثم تقدم حاكم المرسى وميز من الأسارى ثلاثين رجلاً وقال: «هؤلاء الذين سرحهم الطاغية هدية

(١) الاكسير: ١٢٢-١٢٨.

(٢) الاكسير: ١٣٠، ١٤٠.

مولانا أمير المؤمنين «ولم يكتف ابن عثمان بهذاالعدد فقد كلم الوزير الإسباني بالبقية من الاسرى، فتولى الوزير الاتصال بملكه وبعد أيام ورد الجواب فسرح معه اثنين وتسعين أسيراً زيادة على الثلاثين تخيرهم من الصبيان والشيوخ العاجزين وذوي الاعذار ومن طال مكثه في الأسر نحو الثلاثين سنة «ويضيف الوزير ان سلطان المغرب لم يغفل عن الاخرين فقد افتدى منهم زهاء الألفين في دفعات(١).

وزيادة فقد كشفت الرسالة التي حملها السفير المغربي بعد ترجمتهامن العربية إلى لغتهم ان من بين مضامينها التي ارادها، ملك المغرب بالاضافة إلى تسريح أسارى المسلمين واختبار احوالهم، وظائف غير ذلك الزمهم إياه»، وقد ذكر ابن عثمان ان سلطان المغرب قد تكلم بشأن أسرى قرطاجنة قبل هذا بنحو اربعة عشر سنة وحتم عليه في فداء الاسارى المذكورين بالمعاوضة باسارى الاصبنول الذين بالجزائر، وجرى بين الطرفين ذلك لكن عامل الجزائر فدى الاسرى الترك وامتنع من فداء العرب، وفدى من بقي عنده من النصارى بالمال ورد المسلمين إلى الأسر(٢).

ومن الحقائق التي عرضها في رحلته هي مغادرة السفير الإنكليزي لإسبانيا بسبب الحرب التي وقعت بينهما، وقد ذكر ان ملك اسبانيا قد انزل في مقابل جبل طارق قوة اسبانيا من ناحية البر ووجه قوة عسكرية اخرى في البحر لمحاصرة الجبل ولمنع أية امدادات تصل إلى الانكليز فيه، كما اشار إلى حربه ضد الانكليز في امريكا تسانده في ذلك فرنسا، وقد عرض

(١) الاكسير: ١٦٣-١٦٤.

(٢) الاكسير٩٦، ١٦٥

الوزير ابن عثمان اسباب هذه الحرب بصورة مختصرة لكنها تطابق الواقع.[١]

ويضاف إلى ماتقدم فقد حمل معه رسالة من ملك اسبانيا يؤكد فيها تجديد الصلح والمهادنه، حيث سبق له ان وقع اتفاقية صلح «لنحو الاربع عشرة سنة» مع سلطان المغرب محمد بن عبدالله، إلا أن مجريات الاحداث انهت تلك الهدنة فقد أعلن السلطان المغربي محمد بن عبدالله تصميمه على انقاذ مليليه من سيطرته، ولكيلا يكون الأمر غدراً أو نقضاً للعهد اشعرهم بحملته، فجهز حملته على قلعة مليلية في أوائل شوال من سنة ١١٨٨هـ- اوائل ديسمبر سنة ١٧٧٤ م، وضرب عليها حصاراً نحو الأربعة أشهر، وهدم القلعة ولم يبق منها على حد وصف ابن عثمان إلا الأبراج والأسوار والمقاتلة، وأما النساء والصبيان فقد حملتهم مراكب العدو إلى مالقة[٢].

لقد ترتب على ذلك الصلح الجديد ان دخل ولده (اي ملك اسبانيا سلطان نابلس)، وقد اتفق الطرفان على الشروط بعد تعديلها على وفق مضلحة البلدين.[٣]

وسجل لنا الوزير ابن عثمان التقاليد المتبعة في لقاء ملك اسبانيا، لما استقبله خارج مدريد، فقد تقدم الوزير وسلمه الكتاب السلطاني قائلاً: «ووضعته على راسي وقبلته ودفعته اليه فقبضه مني بكلتا يديه وقال هذا وزيري يتكلم معك في جميع الامور وانصرفنا عنه وبقي واقفا مكانه حتى خرجنا عن الباب.[٤]

---

(١) الاكسير: ٩٧-٩٨.

(٢) الاكسير: ١٤١.

(٣) الاكسير: ١٤٢.

(٤) للمزيد عن هذا اللقاء والحفاوة التي استقبل بها الوزير ابن عثمان ينظر الاكسير: ٨٥-٨٧.

ومن الجوانب التي تناولها الوزير سرده لحملة ملك اسبانيا كارلوس الثالث على الجزائر بسفن تنيف على ثلاثمائة وحمل فيها الات البناء واقامته من حجر وجير وارسى عليها ليلا،ونصب عليها المدافع،وهدم وخرب غير ان ريحاً عاصفة سببت في غرق جميع مراكبه التي قدم بها ولم ينج منها الا سبعة مراكب بعد مشقة عظيمة، ويقال انه "نزع التاج عن راسه ورمى به في البحر وقال: من اراد ان يحمل التاج على راسه فليقدم إلى الجزائر وياخذها " وكما اشار إلى كارلوس كينط اي الخامس الذي حاصر تونس وملك الحلقة المعروفة عندهم بالمرسى وبقيت بيدهم ماتنيف على الخمسين سنة إلى ان ورد اليها الخليفة العثماني[١].

ومن جانب اخر فقد قدم لنا معلومات تاريخية مهمه عن الملوك الاسبان الذين تعاقبوا على حكم اسبانيا،واهم الاحداث العسكرية التي وقعت ابان حكمهم، وطبيعة العلاقات السياسية والعسكرية التي كانت قائمة بينهم "حتى اخرهم الذي حضر اليه سفيراً.[٢]

كما ذكر عهد فليب الثالث الذي اخرج من بقي بالاندلس من المسلمين خشية من ثوراتهم ضده، إذ سبق وان ثاروا على عهد والده فيلب سكوند اي الثاني،ففرقهم في البلاد وعبروا البحر الامن تنصر بغرضه[٣].

رابعاً: -المضامين التاريخية في رحلة الاكسير ●●●●●●●●●●●●●

سجل الوزير ابن عثمان الكثير من المعلومات التاريخية،ووصف

---

(١) الاكسير: ٩٠.

(٢) وتسمى الحملة على تونس بموقعة حلق الوادي وقد دفعت سنة ١٥٧٤م الاكسير: ٩١ هامش ٢.

(٣) الاكسير: ٩٢-٩٣.

اثاراً اسلامية خلال رحلته ومنها وصفه لاثار سبته كالمنار الذي هو من اثار المسلمين فقد جعلوا فيه ناقوساً لاينقرون فيه الا اذا كانت الحرب، وباب الكنيسة الذي كان من عمل المسلمين، ووجد في سبتة رخامة كبيرة تعود إلى قبر الامام عبدالله الناصر لدين الله المتوفى سنة ٤٠٨هـ ١٠١٨ مؤسس الدولة الحمودية في الاندلس [(١)].

وعند نزوله مدينة اشبيليه اعد حاكمها لنزوله دار مملكة المسلمين العباديين يقول في وصفها: «ذات الصنائع المتقنة والمرائي المستحسنة مفروشة كلها بالرخام الابيض ولها من سواري الرخام اربعة ومائة سارية اثنان وخمسون في أسقفها ومثلها في الطبقة العليا وبوسطها خصة ماء ترمي الماء في الجو بضعة أكثر من قامة وفيها ثلاث قبب أحداهن وهي التي عن يمين الداخل قبة كبير طولها ثلاثة وسبعون قدماً وعرضها عشرون قدماً وفي صدرها ثلاثة اقواس يدخل منها إلى قبة اخرى مثل البهو» طوله اثنان وخمسون قدماً في عرض اثني عشر قدما ويقابلها قبة مثلها... والقبة الثالثة قبة مربعة ثلاثة واربعون شبراً في كل ربع وسقفها بالتسطير (تزويق) بالعمل المسمى نصف نارنجة مموهة جميع صنائعها وهي أيضاً مفروشة بالرخام وفي كل ربع من ارباعها الثلاثة ثلاثة اقواس فاما الربعان اللذان عن اليمين وعن الشمال ففي كل واحدة بهو طوله مثل القبة وعرضها تسعة قدما والاقواس الثلاثة.. يدخل منها إلى قبة كبيرة مستطيلة وجميع حيطان

---

(١) هو السلطان علي بن حمود بن ميمون بن علي، احد ملوك الطوائف في الاندلس لما انقرضت منه خلافه بني امية على عهد هشام المؤيد.دخل قصر قرطبة في ٢٨محرم سنة ٤٠٧هـ أول يوليه سنة ١٠١٦م ودعا البيعة لنفسه، فبويع ثم قتل بعدها سنة ٤٠٨هـ - ١٠١٨م للمزيد ينظر ابن عذاري -البيان المغرب:٣/١١٦-١٢٠، محمد عبدالله عنان - دولة الاسلام في الأندلس،ط٤،نشر مكتبة الخانجي (القاهرة:١٩٦٩)١٤،ق٢،٦٥٩-٦٦١.

القصر مع قببه مرقوم بالزليج كتب فوق الزليج داخل القصب ودائرة القصر كله ببيتي شعر وهما:

ياثقتي ياأملي انت الرجا انت الولي
انت المجيب من دعا اختم بخير عملي

وطول القصر... مائة وعشر اقدام وعرضه خمسة وثمانون قدماً[١]

وزيادة على ذلك فهو يقدم من خلال رحلته معلومات تاريخية مهمه فهو يستعرض بدقه وايجاز اخبار الدولة العامرية في الاندلس حتى قيام دولة بني حمود صاحب سبته الذي عبر إلى الاندلس سنة ٤٠٥هـ - ١٠١٤ م وقتل سليمان بن الحكم واخوه، ويستمر في عرضه حتى نهاية عهد بني مروان في الاندلس مكتفياً بالقول: «فهذا غاية ما يمكن في الاختصار ومن أراد الاطناب فعليه بموضعه»[٢]

ومن جانب اخر فهو يسرد تاريخياً غزو اشبيلية التي فقدها المسلمون سنة ٦٤٦هـ - ١٢٤٩م، عندما حاصرها فرناند سانطه الثالث بن الفنش ابن سانجة وهو الذي اخذ معها قرطبة من يد امير المسلمين أبي عبدالله محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالغالب بالله، وهو أول ملوك بني نصر، ويضيف بعد ان يتحدث عن صفات الملكين بقوله: «وقبر فرناندسانط» المذكور بمسجد اشبيلية وهو عند النصارى كنيسة اليوم[٣] كما يشير إلى تشابه مسجد اشبيلية مع منارة مسجد الكتبين في مراكش، يقول: «فطلعنا إلى المنار فاذا هو على هئية منار الكتبين يصعد اليه من غير مدارج» وعلاوة على ذلك فقد قدم وصفاً دقيقاً لاشبيلية، واهميتها التجارية ومن بين

(١) الاكسير: ٣٤-٣٥

(٢) الاكسير: ١٦-١٩.

(٣) الاكسير: ٣٦-٣٨.

منتوجاتها الزيت حيث قال: ويحمل من اشبيلية الزيت إلى جميع الافاق والهند وقال: «وقد ذكرلي ان معاصر الزيتون... زهاء ثلاثمائة ويكفيها إفتخاراً انها مسماة عروس الاندلس» كما رأى داراً كبيرة في إشبيلية معدة لتعليم الصبيان علم البحر وخدمة المراكب، وكذلك من غرائب اشبيلية» الغرسة المجاورة للقصر [١]، ومن عجائب اشبيلية القنطرة المضروبة على الوادي الكبير ويشير في معرض حديثه عن الماء الجاري في غالب ديار اشبيلية بانه مجلوب اليه من عين بظاهر المدينة وهو من عمل المسلمين [٢] وقدم وصفاً لدار اشبيلية يسمى بـ «دار عشبة طامة» وتحدث عن دارالسكة فيها، وكذلك الدار المعدة لصنع المدافع [٣].

ومن مشاهداته في قرطبة المسجد الجامع حيث قال عنه: «ودخلنا المسجد... فإذا هو من اعظم مساجد الدنيا واسع الفناء ضخم البناء... وهو كله من الرخام الابيض...» وبداخله المحراب الذي امر بتشييده المستنصر بالله عبدالله الحكم في شهر ذي الحجة من سنة ٣٥٤هـ - ٢٨ نوفمبر سنة ٩٦٥ م [٤] كما عرج على الزيادات التي قام بها الاسبان والتي احدثت تغيرات كبيرة عليه بما اضافوه من بيوت وكنائس [٥] وقد وصفه وصفاً دقيقاً مشيراً إلى أول من اختط هذا المسجد وهو الأمير عبدالرحمن الداخل وسائر أحفاده من بعده زادوا في المسجد حتى زمان المنصور بن

(١) الاكسير: ٣٨-٤٥.

(٢) الاكسير: ٤٥.

(٣) الاكسير: ٤٦-٤٩.

(٤) هو الحكم الثاني بن عبدالرحمن الثالث حكم من سنة ٣٥٠هـ -٩٦١م إلى ٣٦٥هـ- ٩٧م.

(٥) للمزيدعن المسجد وماطرا عليه من تغيرات ينظر الاكسير: ٥٧

أبي عامر حيث يقول: «زاد فيه زيادة كبيرة وكانت مدة الخدمة في الزيادة التي زادها المنصور ثلاث سنين اخرها سنة اربع وثمانين وثلاثمائة[١]

واستهل حديثة عند وصوله إلى مدينة غرناطة باستعراض تاريخي لتاريخها والملوك الذين تعاقبوا على حكمها واول من صيرها دار ملك الحاجب المنصور أبو المثنى زاوي بن مناد الصنهاجي ليستعرض ملوكها حتى عهد اميرها الغرناطي محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله[٢]. كما سرد قصة تسليم غرناطة إلى الاسبان على سبعة وستين شرطاً، وتنازل عنها سلطانها في (٢) ربيع الاول سنة ٨٩٧هـ - ٣يناير ١٤٩٢ م، ثم بين ماجرى بعد ذلك من نقض للعهد من قبل الإسبان[٣]

كما وصف حاضرة اسبانيا مدينة مدريد ومبانيها ومنها دار الملك نفسه الذي بناه ابوه فليب واحترقت واخذ هو في اعادتها وكلها من الحجارة المنحوتة التي تشبه الرخام[٤]، فضلاً عن وصفه لبساتين مدريد ومنها موضع يسمى الرطير ELRetiro، وفيه دار ملوكهم المتقدمة ووصف موضعا بين الرطير ومدريد اتخذوه للنزهة ويسمونه الباصيار يجتمع هنالك من النصارى في كل عشية ما لا يمكن عده، وبمدريد دار كبيرة شبيه بالمتحف فيها انواع من الغرائب البرية والبحرية والمعادن الذهبية والحجرية مالايمكن وصفه،وفيها انواع من معادن الحجارة الثمينة،وذكر ايضاً ان من عجائب مدريد الدار التي ينسج فيها الزرابي (الستائر) والحياطي (ستائر تعلق على الحيطان) وقدر عدد الاكداش

(١) الاكسير: ٦٢

(٢) الاكسير: ١٧٣-١٧٤.

(٣) الاكسير: ١٧٧-١٧٨

(٤) للمزيد من التفاصيل الدار ينظر الاكسير: ٩٨-١٠٠

«العربات» التي تجر كل كدش سته بغال قدرها بنحو العشرة آلاف[١] وبمدريد دار مخصص لمصارعة الثيران ويسمى يومه «بـ عيد الثيران» وهو مانشاهده اليوم ولكن المختلف في وصفه في اخر المنازلة بين الفرسان والثور يخرجون له كلاباً كباراً معدين عندهم لذلك فيرسلونهم عليه فينقضون على الثور وحينئذ يقتله صاحب السيف[٢].

خامساً: مشاهدات حضارية اخرى ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

تخلل رحلة الوزير ابن عثمان مشاهدات سجلها في رحلته، ومنها وصفه لصاحب البريد فقال: «وعندهم ديارات متعددة في الطريق فيها خيل البريد فاذا كان امرهم ياتي به السفير راكباً على فرسه. . فحيث يقرب من إحدى الديار ينفخ في آلة البوق فيسمعه صاحب الدار فيسرج له فرساً... وكلما وصل إلى بلد ينزل فيها البراوات (جمع بر اي رسالة) التي لأهلها التي حملها معه وينزلهم في الدار المعدة للبراوات يسمونها دار الرقاس... ويوم ورود السفير معلوم في سائر المدن فيقصد الناس الدارا لمعلومة وكل من وجد براءه له يدفع عليها جعلاً معلوما ويأخذها[٣].

ومن جانب آخر فقد وصف لنا حياة ملك اسبانيا وصفاته ومنها قوله: «والطاغية المذكور رجل قصير أبيض أزرق العينين طويل الانف.. قد خرج من الكهولة عمره خمس وستون وبه ارتعاش كثير. .» كما وصف البرنسي (اي الامير) ELPrincpe، وقصة مولوده الجديد اذ لم يكن عنده ولد وانما كان عنده الاناث، وقد كان هو وابوه في «كرب عظيم من ذلك» مبيناً ان ملكهم من الفرنسيين وليس من نسل ملوك إسبانيا الأصليين واسمه

---

(١) الاكسير: ١٠٠

(٢) للمزيد عن هذا الموضوع ينظر الاكسير: ١٠٧-١٠٩، ١٣٩

(٣) الاكسير: ٧٥-٧٦.

كارلوس طرسير ومعناه الثالث من اسم كارلوس الذين ملكوا اسبانيا، وزيادة على ذلك فقد عرض وصفاً تاريخيا للملوك الذين تعاقبوا على حكم اسبانيا واسباب انتقال ذلك بين أسرهم.[١]

وتطرق إلى عهد ملكتهم إيزابيل بنت ملك اراغوان التي كان على عهدها اكتشاف بلاد اميركا وهو يسميها ببلاد الهند حيث يقول «ولم يزالوا يملكون في الهند بلدانا كثيرة وأقاليم متسعة» يجلبون كل سنة مايعينهم وبمحصول هذه البلاد ومنعتها وكثرة الاموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاصينيولي اكثر النصارى مالاً واقوى دخلاً[٢].

وخلال عودته مر على طليطله وقد دخل مسجدها «الذي ليس في الوجود مثله في الغرابة واللطافة وعلو السمك وضخامة سواريه مع غرابة شكلها وكله مبني بالحجارة التي تشبه الرخام وسقفه منها... إلا أن النصارى أحدثوا بداخله كنسائهم ويصلون فيها صلاتهم التي يسمونها الميسا ومواضع الموسيقى المسماة بأروكان ذات قنانيط وجعاب... وطول هذا المسجد قدم واربعمائة قدم وعرضه ثلاثون قدما ومائتان وعلو سمكه خمسة عشر ومائة قدم وله من الابواب... خمسة.. ومن بديع هذا المسجد المنارة اليتيمة التي لاتشبهها منارة.. ويصعد اليها بمائتي درجة إلى موضع الاذان ومن موضع الاذان إلى انتهاء علوها نحو المائة درجة[٣]....

وأضاف: «وفي هذه المدينة اثار كثيرة للمسلمين... مثل السور والابواب والازقة وكثير من الجدارات والابار ولازال يسمون السوق الكبير باسمه ولايعرفون معناه»

---

(١) الاكسير ٨٧-٨٩.

(٢) الاكسير: ٨٩.

(٣) الاكسير: ١٤٧-١٥٠

ووصف لنا مدينة الحمراء في غرناطة وقال: فاذا هي احدى عجائب الدنيا في غرابة الشكل ولطافة البنيان... كما وصف بستانها الواقع باعلى الجبل فوق المدينة، وشاهد الكهف المعرف بـ «اصحاب الكهف»[١].

وقدم الوزير ابن عثمان تفصيلات عن الديانه الكاثوليكية، ومن ذلك طريقة صيامهم، والرخص المسماة البولة Bula بإعفائهم من الصيام لقاء قدر معلوم يدفع في ورقة، يصرفه ملكهم على المراكب البحرية كما عرض باسهاب اساليب اختيار البابا في روما وعلاقة دول اوربا في ذلك، ويذكر انه في السنة التي كان عندهم «أحل لهم البابا اكل اللحم في أربعة أيام في الاسبوع» وتناول عيدهم المسمى بعيد الشعانين وهو يوم دخول المسيح بيت المقدس كما هو في انجيلهم الذي يتداولونه وتناول عيد الفصح عندهم وهو اليوم الرابع والأربعون بعد الشعانين، كما تحدث عن التقاليد الدينية التي يقوم بهاملكهم مع العامة،وهو بذلك يقدم معلومات وافيه عن ديانتهم، ليكملها بالحديث عن عيد القيامة عندهم[٢]، يضاف إلى ذلك فقد تناول عند مروره بمدينة الش النساء الراهبات ويسموئنهن الموخات Monja أي الراهبة[٣].

وقدم وصفاً لدار الودع في مدريد، حيث دخله فوجد فيه من الصنائع الغريبة والاواني العجيبة والصور على اختلاف اشكالها والوانها، وقيل له ان اهل الصنعة ساكنون بها باولادهم وان عددهم زهاء أربعمائة رجلا ونساء وبها ايضاً دار العدة فيها من آلات الحرب الكثير من الدروع والقسي وسيوف قديمة للمسلمن وغيرهم، وقد شاهد فيها المكحلة (آلة تشبة

(١) الاكسير: ١٦٧، ١٧٩، ١٨٠-١٨١

(٢) الاكسير: ١٠٩-١١٥.

(٣) الاكسير: ١٥٧-١٥٨

البندقية) يجعل فيها البارود والخفيف «الرصاص»، وبها دار معدة لصناعة الحجر على اشكال غريبة، تستخدم في الادوات المنزلية الملكية، وبها دار معدة للرسائل يسمونها دار الرقاس وقد عرض نظامه في بلادهم[١].

كما شاهد الوزير ابن عثمان بمدينة شقوبيه الدار التي يصنع بها الكاغيد «الورق» وطريقة صناعته من «الكتان» ،وكذلك دار سكه الفلوس النحاسية، والدار التي يصنع بها الملف «الثوب الناعم» على اختلافا أنواعه وألوانه[٢]

وفي يوم الجمعة ٨، جمادى الاولى من سنة ١١٩٤ هـ -٢يوينه سنة ١٧٨٠م، كان لقاء الوداع بين الوزير وملك اسبانيا، وقد ادى الوزير ما يتطلب منه على وفق السياقات الجارية بين البلدين، وتسلم جوانب ملك اسبانيا بشان الصلح،واهداه عدة كتب من مؤلفات المسلمين وقال له الوزير الاعظم: «ان الطاغية بعث اليك هذه الكتب على سبيل الهدية والإكرام لأنه بلغه انك لما كنت بالاسكريال ودخلت خزانة كتب المسلمين اردت اخراج شي منها ويقول لك لو كان امر كتب الاسكريال بيده لاعطاك منها جميع ماتريد لكنها محبسة على ذلك الموضع من عهد الملوك الاول، وهي علي يد البابا والى نظره... »[٣]

ولم يغب عن باله ان يتحدث عن خصائص المدن التي مر بها من حيث اهميتها الاقتصادية، فقد ذكر مرسيه على سبيل المثال بقوله: «واكثر ما في بساتين هذه المدينة شجر التوت المعد لعلف الحرير... وان كانت غرناطة بلاد الحرير فمن هذه البلاد يجلب اليها لكثرته» وشاهد فيها الدار

---

(١) الاكسير: ١١٦-١٢٠.

(٢) للمزيد عن مراحل صناعته ينظر في الاكسير: ١٣١-١٣٣.

(٣) الاكسير: ١٤٢-١٤٥.

الذي يستعمل فيها الحرير بحركة الماء وكذلك دار البارود [١]، بينما عرض بشي من التفصيل مرسى مدينة قرطاجنة بمخازنه واهريته العظيمة ومرسييه وابراجه وصهاريجه التي انشئوها في شاطئيها إلى غير ذلك[٢].

ومن اغرب ماشاهده الوزير ابن عثمان بطريق العودة في مرسى قرطاجنة رجلا له ابنتان احداهما من اربع عشر سنة والاخرى من سبع سنين جاوءا من إيطاليا يلعبون على الحبال [٣] وهو مايعرف اليوم بالسيرك.

---

(١) الاكسير: ١٦٠.

(٢) الاكسير: ١٦٢-١٦٣.

(٣) الاكسير: ١٦٦.

تصنيف المؤلفات العلمية
عند علماء الأندلس والمغرب

تأصل فن الرحلات عند الأندلسيين والمغاربة واهتموا بتدوين رحلاتهم، وتخصصوا في هذا الفن، وفرعوه حسب طبيعة الرحلة وقد قسمها محمد الفاسي إلى خمسة عشر قسما منها الرحلة الحجازية والسياحية والرسمية والزيارية والدراسية والأثرية والاكتشافية و المقامية والخيالية و العلمية والسياسية والدليلية والعامة والسفارية والفهرسية، أما الأخيرة فهي التي «يقتصر مؤلفها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيوخ الذين قرأ عليهم والكتب التي درسها عليهم»[1].

غير أن ما يمكن أن نقوله في هذا الصدد أن بيئة المغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب) كانت محفزة للعلماء في الاطلاع على مراكز الحضارة العربية الإسلامية، والاستزادة من علومها، ولعل هذا الأمر كان حلما يراود مخيلة كل فرد شعر بقيمة المشرق الإسلامي سواء أكان دافعه الحج وزيارة العتبات المقدسة أم رؤية معالم الحضارة والعلم في

---

(١) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، حققه وعلق عليه محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس (الرباط: ١٩٦٥): مقدمة المحقق: ،ص ص: خ- ز.

المدن العربية الأخرى، وقد خص العلامة ابن خلدون منزلة الرحلة في فصل عقده في مقدمته إذ يقول فيه: «إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة.. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.. فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[١]، كما بين أن ملاقاة الشيوخ خلال الرحلة يذلل للطالب مشكل الاصطلاحات في تعلم العلوم بقوله: «فلقاء أهل العلم وتعدد طرق المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها إنحاء تعليم وطرق توصل وينهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم..»[٢]

وأرجع البعض إلى أن فوائد الرحلة في طلب العلم تكمن في أمرين أولهما: ضمان سلامة المنهج ألنقلي، من خلال تصحيح المتون المروية ووصل أسانيدها بأصحابها، وثانيهما: تصحيح منهج التفكير وبناؤه على أثبت القواعد، ومن الأقوال المأثورة: «إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره[٣].

ومن هنا فقد ذهب البعض من رجال العلم والأدب ممن رحل عن

---

(١) مقدمة ابن خلدون، نشر دار أحياء التراث العربي (بيروت: د ت)، ص:٥٤١.

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: ٥٤١.

(٣) أبو الفضل بن موسى اليحصبي، عياض - ترتيب المدارك، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط١، الرباط، المغرب، تقديم المحقق، ١/ب، يب؛ أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع (تونس: ١٩٨٥) مقدمة المحقق، ص٦٠.

بلاده أن يضع في كتاب خاص أسماء شيوخه وتراجمهم، مع ذكر الكتب التي درسها عليهم، والتعرض لسلسلة الرواة التي توصله لواضعي المؤلفات الأولين(١) الأمر الذي أدى إلى تنوع تسميات ذلك الصنف من الكتب المعنية بأسماء الشيوخ، فقد كان الأوائل من علمائنا يطلقون لفظة المشيخة»(٢) على الجزء الذي يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه ومروياته عنهم، ثم صاروا يطلقون عليه بعد ذلك المعجم(٣)، بينما ظل أهل الأندلس يستعملون ويطلقون البرنامج(٤) في حين ظل أهل

---

(١) المكناسي، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ٢٠.

(٢) المشيخات: يقول الكتاني «في معنى المعاجم، إلا أن المعاجم يرتب المشيخات فيها على حروف المعجم بعينها في أسمائهم بخلاف المشيخات.. والمشيخة بفتح الميم وكسرها وفتح التحتية وضمها أيضا وفتح الميم وكسر الشين المعجمة أي وإسكان الياء، جمع شيخ بالفتح، وهو لغة من استبان فيه السن، ويطلق مجازا على المعلم والأستاذ لكبره وعظمه، وجمعه شيوخ، ثم استعملت المشيخة علماً على الكراريس التي يجمع الإنسان فيها شيوخه» الكتاني، فهرس الفهارس، ص ص: ٢/ ٦٢٤.

(٣) المعجم هو «الكتاب الذي يترجم فيه الشيخ شيوخه مرتبين على حروف المعجم، ويذكر ما رواه عن كل واحد في ترجمته من حرفه، ثم توسع الآخرون فسموا المعجم الكتاب الذي يخصه الشيخ بشيوخه وإقرانه أو من اخذ عنه، أو يفرده احد المحدثين بشيوخ حافظ أو تلاميذه، كمعجم شيوخ الصدفي لعياض ومعجم تلاميذه لابن الابار»، الكتاني، فهرس الفهارس، ص ص: ٢/ ٦٠٩-٦١٠.

(٤) البرنامج هو «كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم، ذاكرا عنوان الكتاب واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأه عليه أو تحمله عنه، وسنده إلى المؤلف الأول، وربما ذكر خلال ذلك المكان الذي كان موضعا للدرس، والتاريخ الذي بدأ فيه للدراسة أو ختمها» عبد العزيز الاهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١، ج١، ص٩١، وفي تاج العروس هي كلمة معربة عن كلمة (برنامه) الفارسية التي تدل على الورقة الجامعة للحساب، فصل الباء في باب الجيم.

المشرق يستعملون إلى الآن الثبت[١] وأهل المغرب يسمونه الفهرسة[٢].

يحاول البحث إتباع المنهج التحليلي لكتب الفهارس مبينا بأسلوب استقرائي مسار المؤلفات العلمية التي سادت في تلك العصور، أما أهداف البحث فهي إبراز الفوائد التي حققتها الفهارس العلمية في حفظ الكثير من المؤلفات إذ أصبحت دليلا للباحثين في التقصي والعثور عليها بعد أن أصبح الكثير منها بحكم المفقود أو التي وقع الاختلاف في نسبتها إلى مؤلفيها وزيادة على ذلك فقد قدمت هذه المؤلفات العلمية صورة للحياة الثقافية التي عاشها العلماء في مختلف الحقب.

تصنيف كتب البرنامج ••••••••••••••••••••••••••••••

لم يلتزم علماء الأندلس والمغرب بتصنيف المؤلفات العلمية بطريقة واحدة، ولم يتبعوا منهجا واحدا في تأليفها، أو تبويبها، أو ترتيب مادتها، فلكل منهم طريقته، ويمكن حصرها من حيث أساليب مؤلفيها وعرضهم لمادتها إلى ما يلي:-

---

(١) يقول الحافظ السخاوي عنه في شرحه على الألفية والثبت بسكون الموحدة الثابت القلب واللسان والكتاب والحجة وأما بالفتح فما يثبت فيه المحدث مسموعه مع أسماء المشاركين له فيه لأنه كالحجة عند الشخص بسماعه وسماع غيره «الكتاني، فهرس الفهارس، ١/٦٨، نقلا عن الشرح على الألفية للسخاوي»، ص:١٥٢.

(٢) يقول أبو عبدالله في أوضح المسالك: «هو في الاصطلاح الكتاب الذي يجمع فيه الشيخ شيوخه وأسانيده» وما يتعلق بذلك، وجاء في القاموس: الفهرس بالكسر الكتاب الذي يجمع فيه الكتب، معرب فهرسة وقد فهرس كتابه، وقال ابن مكي في تثبيت اللسان فهرست بإسكان السين والتاء فيه أصلية، ومعناها في اللغة جملة العدد للكتب، لفظة فارسية. الكتاني، فهرس الفهارس، ص ص: ٦٩-٧٠.

■ ١ - تصنيف المؤلفات العلمية مرتبة حسب موضوعاتها:

ويمثل هذا المنهج الفقيه المحدث أبو بكر محمد بن خير الاشبيلي (٥٠٢-٥٧٥هـ/ ١١٠٨-١١٧٩م) الذي ألف «فهرسة ما رواه عن شيوخه»[١] حيث يتكلم في مقدمة الكتاب عن فضل العلم وفائدته، مستشهدا بقوله (ﷺ) «العلم الذي لا يعمل به كالكنز الذي لا ينفق منه، اتعب صاحبه نفسه في جمعه، ثم لم يصل إلى نفعه» أو كما قال رسول الله (ﷺ) «العلم علمان، علم باللسان هو الحجة عليك، وعلم بالقلب هو النافع لك»، ومن خلال تلك المقدمة يبين ابن خير الاشبيلي مسوغات انجازه لهذه الفهرسة بقوله: «وأنه مالي سائلون ممن له رغبة في العلم وعناية بتقييده وهمة في تحصيله أن اذكر لهم ما رويته عن شيوخي، رحمهم الله من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، وان اذكر أسانيدي عليهم فيها إلى مصنفيها، وما قرأته من ذلك عليهم أو سمعته عليهم بقراءتهم أو بقراءة غيري، وأن أضيف إلى ذلك ما ناولوني إياه أو أجازوه لي»[٢].

ولا يكتفي ببيان فضل العلم بل يزيد على ذلك إلى بيان ما ينبغي أن يحمله طالب العلم من صفات بقوله: "واعلموا رحمكم الله أن على متقلد هذه الطريقة وظائف: بعضها في الحمل والرواية، وبعضها في التأدية والتبليغ، فأما التي في الحمل فمنها أن يعرف طرق الرواية ومراتبها.. أعلاها إسماع الراوي قراءة المحدث للكتاب الذي رواه، أو إيراده للحديث من حفظه، وسماعه من فلق فيه، وبعدها عرض الراوي للكتاب أو الحديث وسماع الشيخ ذلك منه، ثم بعد ذلك مناولة الشيخ للكتاب

---

(١) منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت: ١٩٧٩).

(٢) ابن خير الاشبيلي، المصدر السابق، ص ص: ٥ -٦

الذي رواه عن شيخه، ثم بعدها إجازة الشيخ للطالب أن يحدث به بالكتاب الذي رواه وإباحته ذلك له[١].

كما يبين في ذلك أهمية الإجازة العلمية إذ عرض لنا شروط الإجازة عند الإمام مالك رحمه الله قائلا: ولمالك رحمه الله شروط في الإجازة، وهو أن يكون الفرع معارضا بالأصل حتى كأنه هو. . . وأن يكون عالماً بما يخبر به، ثقة في دينه وروايته، معروفا بالعلم، وشرط ثالث وهو أن يكون المستجيز من أهل العلم ومتسماً بسمته حتى لا يضع العلم إلا عند أهله... وكان يكره الإجازة لمن ليس من أهل العلم ولا من خدمه وقاسى صناعته»[٢].

وعن فوائد الإجازة العلمية قال: «إن في الإجازة فائدتين: إحداهما استعمال الرواية عند الضرورات، والثانية الاستكثار من المروي حتى لا يكاد يشذ عمن استكثر من الروايات»[٣].

ثم يتناول ما يراه من وظائف الحمل ومنها حسن النية وان يزيد بروايته للحديث استفادة التفقه فيه، والعمل بما يستفيده منه، ويبلغه إلى متحققه، كما يبين فوائد العناية بتعلم علم اللسان، كما أوضح ما يقع على طالب العلم من البر بشيخه والرفق به والتملق له ليستخرج منه بذلك الفوائد يقول ابن قتيبة: ليس الملق من أخلاق المؤمن إلا في طلب العلم»[٤].

بعدها يقدم في فهرسته أسماء الكتب حسب ترتيب علومها فيضع

---

(١) المصدر نفسه: ص: ١٢

(٢) المصدر نفسه: ص: ١٥.

(٣) المصدر نفسه: ص: ١٦.

(٤) المصدر نفسه: ص: ٢٠.

الصدارة فيها لعلوم القرآن من ذلك القراءات وما يتصل بها، والناسخ والمنسوخ والأحكام والتفسير، تتلوها ذكر الموطأت وما يتصل بها، وذكر المصنفات المتضمنة للسنن أيضا مع فقه الصحابة والتابعين، ومن المسانيد المخرجة على أسماء الصحابة، ومن سائر كتب الحديث من منشور وغير ذلك ومن كتب شرح غريب الحديث ومعانيه، ومن كتب علل الحديث والتواريخ ومعرفة الرجال وغير ذلك مما يتصل به ومن كتب السير والأنساب، ومن كتب الفقه على مذهب مالك بن انس، ومن كتب أصول الدين وأصول الفقه وفضل العلم وغير ذلك ما يتصل به، ومن كتب الاشربة، ومن كتب الفرائض، ومن كتب عبارة الرؤيا، ومن كتب الزهد والرقائق وما يتصل بها، ومن كتب اللغات والآداب والشروحات وأشعار العرب والمحدثين وما يتصل بذلك، ومن كتب الآداب واللغات والشروحات وما يتصل بذلك من نوعه، ثم يذكر ما رواه من فهارس جامعة لروايات الشيوخ وتواليفهم، ليختتم فهرسته بباب تسمية الشيوخ الذين روى عنهم وأجازوه لفظا وخطا[1].

إن ما قدمه ابن خير من الفهرست الأبجدي من الكتب تزيد على الألف والأربعين كتابا، ولو قارنا مع ما جاء عنها في كشف الظنون لحاجي خليفة لاتضح أن الأخير لا يذكر منها غير عدد ضئيل جدا وهو ما يحفظ لابن خير حقه وجهده في حفظ تراث أمتنا.

■ ٢ - تصنيف المؤلفات العلمية حسب الشيوخ الذين تلقى عنهم أو استجازهم:

لقد اتبع هذه الطريقة مجموعة من المؤلفين إلا أنهم لم يلتزموا نهجا موحدا، فإذا كان الإمام القاضي عبد الحق بن عطية ألمحاربي الأندلسي

---

(١) المصدر نفسه: ص ص: ٢٣، ٧٧، ١٢٦، ١٣٧، ١٥٠، ١٨٥، ٢٠٣، ٢٣٠، وما بعدها.

(٤٨١-٥٤١هـ/ ١٠٨٨-١١٤٦م)[١] قد اتبع منهجا في فهرسته حيث قال بعد الحمد والتصلية: «هذه تسمية من لقيته من الشيوخ حملة العلم وذكر ما رويته عنهم ومن أجازني»[٢].

وتتسم طريقته بتقديم صورة واضحة عن حياة شيوخه العلمية مع جوانب من الوقائع التي جرت لهم مع بعض العلماء، ولا يغفل أحيانا أن يتطرق إلى حياتهم الشخصية والاجتماعية، وما تقلدوه من مناصب، ثم يبدأ في سرد الكتب التي رواها عنهم سماعا أو قراءة أو مناولة أو إجازة ويذكر أحيانا المكان والزمان، وسلسلة السند لبعض الكتب المروية إلى مؤلفها، كما تتفاوت ترجمة علمائه بين الإطالة والاختصار حيث قد تبلغ السطر أو السطرين[٣].

واشتملت فهرسته على تسعين كتابا، علاوة على كلمة تواليف والتي تعني مجموعة من الكتب التي رواها عن شيوخه وزيادة على ذلك فقد كان لهذه الفهرسة قيمة كبيرة لما احتوته من لكتب التي كانت محور الدرس والأخذ والعطاء، وكيف دخلت تلك الكتب وعلى يد من دخلت إلى الأندلس، فضلا عن أهميتها في تسليط الضوء على الحياة العلمية بمدن الأندلس[٤].

---

(١) من أهل غرناطة، كان فقيها عالما بالتفسير والأحكام والحديث، وكان واسع المعرفة، متفننا في العلوم، للمزيد ينظر: ابن بشكوال، الصلة: ص ص: ٢/ ٣٧٦-٣٨٧

(٢) فهرس ابن عطية، تحقيق: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، نشر دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ١٩٨٠)، ص: ٤١.

(٣) قارن تراجم الفهرس على سبيل المثال لا الحصر بين أول ترجمة وآخر ترجمة في فهرس

(٤) المصدر نفسه: مقدمة المحقق، ص: ٣٠.

أما فهرسة شيوخ القاضي عياض (٤٧٦-٥٤٤هـ/ ١٠٨٣-١١٤٩م) المسماة بـ (الغنية) فقد نهج مؤلفها الطريقة نفسها، حيث يقول في مقدمتها: «أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي فقد تعين.. أن أنص لكم من ذلك على عيون، وأخص أوراقي هذه بما لعله يفي بالمضمون، وأجيل على فهارس الأشياخ على العموم في سائر أنواع العلوم، وأسمي أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا ومناولة وإجازة ومن كتب إلي ممن لم ألقه وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يعطي الحال وفقه، بطرق من الاختصار والإيجاز.. وذكرت أثناء ذلك أسماء جلة ممن لقيتهم وجالستهم وذاكرتهم ولم أرو عنهم، أو سمعت منهم»[١].

بعدها يذكر القاضي شيوخه مرتبين على حروف الهجاء، مفضلا الإهلال بالمحمدين حتى إذا ما استوفى شيوخه منهم، عرض سائر أسماء شيوخه مرتبة على الحروف من الألف إلى آخر الحروف، وهو في عرضه يترجم لهم ويعرض ما رواه عنهم من كتب مختلفة من علوم الدين والأدب والنحو واللغة، ومفصلا أسانيدهم[٢].

ويمثل هذه الطريقة أيضا أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي (٥٩٢-٦٦٦هـ/ ١١٩٥-١٢٦٧م) في برنامجه[٣] حيث رتبه على

---

(١) الغنية «فهرست شيوخ القاضي عياض»، تحقيق ماهر زهير جرار، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، (بيروت: ١٩٨٢)،ص ص: ٢٥-٢٦

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٧ وما بعدها، ؛ هناء دويدري، السند العلمي في كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة التراث العربي، العدد ٦٠ صفر ١٤١٦، يوليو ١٩٩٥ السنة ١٥،ص ص: ٣٢-

(٣) حققه إبراهيم شبوح، نشر وزارة الثقافة والإرشاد السوري، (دمشق: ١٩٦٢)

الطبقات، وعمد في تراجمه إلى ذكر أسماء شيوخه كاملة وموضع لقائه لهم، وما أخذه عنهم من كتب، وذكر تواليفهم ومن استجازهم إجازة عامة فأجازوه، وذكر وفياتهم، مبتدئا بطبقة حملة الكتاب العزيز المتصدرين لإقرائه وثانيا ذكر من لقيه واخذ عنه ما يسر من مصنفات الحديث ومسنداته وكتب الفقه وثالثاً ذكر من لقيه من النحويين والكتاب وحملة اللغات والآداب ورابعاً من اخذ عنهم من المتمرسين بالكتابة والشعر وحمل الآداب وخامسًا ذكر سائر من لقيه من المشيخة المسندين، مختتما برنامجه في فصل ضمن بعض من ذكر ممن لقيه من شعراء العصر، ممن ينزل منزلة الشيوخ، ثم من أجازه من أهل المشرق وهم سبعة وردت عليه إجازاتهم جميعا في شعبان سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م [١]، وذكر في آخر الفصل انه بقي من أهل المشرق ممن أجاز له جماعة لم يورد أسماءهم لأنه لا يعرف في وقت تدوين برنامجه طرقهم، ولا عمن اخذوا، وذكر أيضا انه لم يدون ممن اخذ عنه بالأندلس - غير ما ذكر - أما لأنه نسيه عند الإملاء لهذا المجموع، أو لم يحضره من أسماء أشياخه وطرق روايته، ثم جرد أسماء جميع من روى عنهم مما تقدم ذكره في برنامجه، على النسق الذي تقدم في برنامجه، ليكون ذلك كما يقول «ميسرا لمن له غرض الوقوف على مجرد أسمائهم، واكتفاء بالإيراد لهم»[٢].

ويعتبر أبو العباس أحمد بن يوسف اللبلي (ت٦٩١هـ/ ١٢٩١م) الأندلسي في فهرسته الذي ارتحل إلى مدن المشرق الإسلامي وكان له في كل مدينة حل فيها شيوخ، ثم عاد بعد تطوافه في المشرق إلى تونس، ليستقر فيها، وتصنيف كتابه في تلبية لرغبة بعض أهل العلم الذين طلبوا

(١) برنامج شيوخ الرعيني، ص ص: ٧، ٣١، ٧٩، ٩٢، ١١١، ١٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص ص: ١٧٩- ١٨٠.

منه «ذكر شيوخه الذي اخذ عنهم في البلاد المشرقية والمغربية علم الأصول وغيره من العلوم الدينية على اختلاف ضروبها البلاد فنونها» حيث عرف تسعة من أعلام الكلام وأصول الفقه ممن اخذ عنهم، وكذلك برنامج أبي عبدالله المجاري (٨٦٢هـ/١٤٥٧م) الذي رتب شيوخه حسب بلدانهم مبتدئاً بشيوخه من غرناطة ثم المغرب فمصر، حيث عرض أنواع التلقي والنقل للأحاديث، والكتب التي أخذها عن شيوخه، مثبتا المقدار المقروء من تلك الكتب إن لم يقرأه كله[١].

أما فهرست الرصاع[٢] لأبي عبدالله محمد الأنصاري المتوفى بمدينة تونس سنة (٨٩٤هـ-١٤٨٨م)، فقد تناول فيها مبدأ نشأته وما يتصل بحياته وفي أثناء ذلك يستطرد إلى أمور تتعلق به أو بشيوخه أو بما يقع في المجتمع، مبتدئاً بأول شيوخه الذي قرأ عليهم القران الكريم في المكتب الواقع في منطقة سكناه ولم يستمر شيخه في تعليمه بسبب انتشار الوباء الذي توفي فيه أهل المكتب، ثم انتقل إلى مسيد «مكتب» آخر بعد وفاة معلمه الأول[٣]، بعدها تناول رحلته إلى تونس وكانت طريقته لاتقف عند ترجمة شيخه فحسب بل يتحدث عن أشياخ شيخه أيضاً[٤]، وقد تطول ترجمة شيخه وقد تقصر كحال ترجمة شيخه الفقيه المحدث عبد الواحد بن محمد الغرياني الذي اكتفى بقوله: «حضرت بمجلس تفسيره بمسجده عند داره وله تواليف عديدة وروايات للكتب كثيرة واخذ عن مشايخ فقهاء جلة وأجازوه من الحضرة ومن الأندلس ومن المشرق وله همة عليه في العلوم

---

(١) دويدري، المرجع السابق، ص: ٣٤.

(٢) تحقيق وتعليق محمد العنابي،سلسلة من تراثنا الإسلامي، نشر المكتبة العتيقة (تونس: دن)

(٣) المصدر نفسه، ص ص: ١٥-١٩.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٥٦ وما بعدها.

وله قلم عجيب في مشاركة المنقول والمعقول وأجازه الشيخ الإمام ابن عرفة رحمه الله»[١]، وقد اختتم فهرسته بحديث قال عنه: «يعدونه أول المسلسلات».. ويسمى حديث الرحمة ويسمى الملاقاة... أن رسول الله (ﷺ) قال «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»[٢].

يضاف إلى هؤلاء ثبت أبي جعفر احمد بن علي بن داود البلوى الوادي اشي (ت٩٣٨هـ/ ١٥٣١)[٣] الذي ترجم فيه المؤلف لحياة شيوخه، مبتدئا بأبيه الذي يقول في مستهلها: «أول من قعدت بين يديه وحضرت مجلسه للقراءة عليه والدي الذي نشأت في ظل رفده، وسعى لي في تحصيل السعادة بغاية جهده..»[٤].

ويأتي فهرس ابن غازي (ت٩١٩هـ/ ١٥١٣م) المعروف بـ كتاب التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد[٥] اتجاهاً آخر حيث يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم واصلا اسمه بأسمائهم وبسندهم حتى اسم مؤلف الكتاب المروي، وقد افتتح فهرسته هذه بحديث الأولية بترجمة مشايخه وعددهم ثمانية عشر شيخا، مع ذكر الكتب التي رواها عنهم والمسلسلات والنكت والنوادر، وتتفاوت تراجم شيوخه في الطول والقصر، فقد تبلغ صفحات عديدة كترجمة شيخه أبي عبدالله الصغير[٦]،

(١) المصدر نفسه، ص ص: ١٧٧- ١

(٢) المصدر نفسه، ص ص: ٢٠٦- ٢

(٣) حققه عبدالله العمراني، ط١، نشر دار الغرب الإسلامي (بيروت: ١٩٨

(٤) البلوى، المصدر نفسه: ١٧٩، دويدري، المرجع السابق، ص:

(٥) حققها محمد الزاهي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة الفهارس (٣) (الدار البيضاء: ١٩٧٩).

(٦) المصدر نفسه، ص ص: ٣٦-٧٠.

وقد لا تتجاوز الخمسة اسطر كترجمة شيخه أبي زيد عبد الرحمن ألمجدولي الشهير بالتونسي[١]، والفهرسة حافلة بالإجازات، وفي خاتمتها ذكر المؤلف بعضا من مؤلفاته التي أتم تحريرها والتي لم يزل في تقييدها، ثم استدرك بها بإجازة من ابن مرزوق الكفيف، فذكر نتفا من أخباره وبعض شيوخه ثم ذكر الكتب التي أجازها له ابن مرزوق[٢].

لقد اعتبرت فهرسة ابن غازي من اشهر فهارس المغرب في القرن العاشر للهجرة لما حوته من أسماء المشاهير من شيوخ الغرب في تلك المدة، وبعضا من تأليفهم، كما ذكرت مئات الكتب التي كانت مقررة للدرس هناك حيث بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة كتاب، وبذلك قدم لنا صورة عن حياة التعليم والعلماء والمدارس والكتب.

أما رحلة أبي الحسن علي القلصادي المتوفى بباجة افريقية(تونس) سنة ٨٩١هـ - ١٤٨٦م[٣] والتي ابتدأها سنة ٨٤٠هـ-١٤٣٦م وسماها «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» فقد كان

---

(١) المصدر نفسه، ص:

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٧٠ وما بعد

(٣) ولد بمدينة بسطة الأندلسية الواقعة في الشمال الشرقي لغرناطة حوالي سنة ٨١٥هـ وتوفي في مدينة باجة الأفريقية سنة ٨٩١هـ -١٤٨٦م، وهو من أهم علماء الأندلس الذي اشتهر بتاليفة الكثيرة التي تناولت علوما مختلفة وكان اغلبها في الحساب والفرائض للمزيد عنه ينظر احمد بن عمر المعروف ببابا التنبكتي - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عباس بن عبد السلام، الطبعة الأولى (مصر: ١٣٥١هـ)، ص: ٢٠٩، احمد بن محمد التلمساني المقري -نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط١ دار صادر (بيروت: ١٩٦٨)، ص ص: ٢/ ٦٩٢- ٦٩٣؛ أبو الحسن علي القلصادي - رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع (تونس -١٩٧٨): مقدمة المحقق، ص ص: ٣٠-٥٠.

المقصور من هذا الموضوع كما يقول القلصادي: «أن يكون معرفاً بأشياخي من أهل العلم الذين أخذت عنهم... وبرحلتي من بسطه مسقط راسي.. من جزيرة الأندلس...»[١] وقد بلغ عدد من ترجم لهم ثلاثة وثلاثين شيخاً وهي تراجم متفاوتة في الطول، اهتم في سرد ماأخذ عنهم من كتب، وذكر من أجازه أو ناول وسمى الكتب التي صححها على مؤلفيها[٢].

وزيادة على ذلك فقد صرف بعضاً من جهده رحلته في التأليف وخلال إقامته في تلمسان وبينما كان يأخذ عن شيوخه ألف في تلك المدة كتابه التبعة الواضحة في مسائل الأعداد، أما في تونس التي أقام فيها مدة سنتين ونصف في رحلة الذهاب إلى البقاع المقدسة وإقامته فيها في رحلة الإياب مدة سنة كاملة فقد اخذ من علمائها واشتغل في الوقت نفسه بالتدريس حيث يقول: «كنت في أثناء ذلك اخذ في القراءة والإقراء» وكذلك في التأليف فقد صنف في تونس كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب والقانون في الحساب وكتاب الكليات في الفرائض وقد شرحه في نحو أربعه كراريس، أما في القاهرة فقد اخذ من شيخين فيها وأقام مدة لاتتجاوز الستة اشهر، بينما أمضى فيها بعد عودته أكثر من ثلاثة عشر شهراً، اشتغل فيها بطلب العلم قراءة وإقراء، وخلال إقامته في البقاع المقدسة فقد ألف كتابه في الفرائض وهو شرح فرائض ابن الحاجب كما اخذ الحديث عن الشيخ أبي الفتح الحسن المراغي [٣].

وعلى العموم فان رحلته التي استغرقت خمس عشرة سنة بعد عودته

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٧١.

(٣) المصدر نفسه، ص ص: ٣٢-٣٦

إلى مسقط رأسه ثم انتقاله إلى غرناطة حيث انصرف إلى التدريس والتأليف ومن بين ذلك "شرح الأنوار السنية لابن جزي المسمى لب الأزهار في شرح الأنوار و شرح فرائض خليل الذي أنهى تأليفه سنة٨٨٠هـ ١٤٧٥م،ومساعدة طلبته على مقابلة ماكتبوا من مؤلفاته ومنها أن علي البياض قابل عليه شرح فرائض ابن الشاط سنة ٨٨٠هـ١٤٧٥م [١].

■ ٣ - تصنيف المؤلفات العلمية بجمع الطريقتين السالفتين معا:

وتتلخص هذه الطريقة بقيام المصنف بجمع الطريقتين في كتاب واحد، وابرز من مثل هذا الأسلوب محمد بن جابر الوادي اشي الأصل التونسي مولدا وقرارا المتوفى بتونس سنة (٧٤٩هـ/١٣٣٨م) في برنامجه[٢] يقول الوادي أشي: «وجعلته في جزأين كما آمل، في احدهما أسماء الشيوخ وأنسابهم وكناهم وما أمكن من ذكر مواليدهم ووفياتهم وأناشيدهم، وفي الآخر ذكر المأخوذ عنهم مضافا لهم ما فيه من علو سند لكن بالإجازة، معتمدا في ذلك طريق ذوي الاستجازة...»[٣].

ولقد تناول في القسم الأول تراجم شيوخه الذين قرأ عليهم وروى عنهم وأجازوه بتونس، والإسكندرية والقاهرة ودمشق ومكة والمدينة، ثم أتم ذلك بتراجم مشايخه بالإجازة من أهل المغرب والمشرق، ومع انه رتب أسماء شيوخه على حروف المعجم إلا أنه لم يراع فيه الدقة المنهجية لا في الأسماء ولا أسماء الآباء، وهو يذكر في الغالب تاريخ المولد والوفاة، بينما اقتضب كثيرا في تراجم شيوخه بالإجازة بحيث لا تتجاوز

---

(١) المصدر نفسه: مقدمة المحقق، ص: ٣٧ مع هوامش

(٢) حققه محمد محفوظ، ط٢، نشر دار الغرب الإسلامي (بيروت: ١٩٨

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٣٧.

سطرا واحدا يقتصر فيه على ذكر الاسم مجردا أو بزيادة ذكر بعض شيوخ المترجم له[١].

أما القسم الثاني فقد خصه كما تقدم بأسماء الكتب التي رواها عن شيوخه بالسند المتصل إلى مؤلفيها مع الحرص على ذكر العلو في السند حيث ابتدأه بقوله: «هذا ذكر ما حضره ذكره مما شرح في أول التأليف سره»، فتناول طرق روايته للقرآن ومشايخه الذين روى عنهم وثناه بالموطأ برواية يحيى بن يحيى ألليثي ثم بالصحيحين، ثم بالمسانيد وكتب السيرة، والكتب الحديثية الأخرى، وسرد كتبا أخرى في التصوف والأدب والنحو واللغة والأراجيز والمقامات، واتسم بعدم الدقة في الترتيب التي بدت شائعة في هذا القسم [٢].

والجدير بالذكر انه ذكر أسماء شيوخه الذين أجازوه كتابة في أزمنة مختلفة، ذكرهم بعد شيوخه الذين قرأ عليهم وسمع منهم، وعددهم ٢٠٨ من الشيوخ، بينما كان عدد شيوخه بالتلقي والمشافهة لم يتجاوز ٧٠ شيخا، كما انه استجاز نسوة عالمات مشهورات بالرواية في دمشق وعددهن ثلاث عشرة امرأة ذكرهن في برنامجه تحت عنوان ومن النساء المجيزات[٣].

■ ٤ - تصنيف المؤلفات العلمية بالانتقال من حدود الفهارس إلى كتب الآمالي:

يمثل هذا الصنف برنامج بغية الراغب ومنية الطالب لأبي الحسن بن مؤمن الأندلسي المتوفى بفاس سنة (٥٩٨هـ ١٢٠١م)، وهو برنامج لم يصل إلينا، ولكن ذكره ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة صاحب

(١) المصدر نفسه، ص:

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٧٧ وما بعد

(٣) المصدر نفسه، ص ص: ١١-١٢.

البرنامج بعد أن عدد شيوخه فقال عن برنامجه: «وهو برنامج حفيل أودعه فوائد كثيرة، كاد يخرج بها عن حد الفهارس إلى كتب الامالي المفيدة، وقفت على نسخة منه بخطه في ثمانية عشر جزءاً، أكثرها من نحو أربعين ورقة، واقتضبه في ثمانية أجزاء من تلك النسبة، ووقفت عليه أيضا بخطه، ورأيت نسخة أخرى من الأصل في سفرين كبيرين، ويكون هذا البرنامج في حجم جامع الترمذي وأشف، وعرف فيه أحوال رجاله الذين روى عنهم، وذكر أخبارهم ومناقبهم في العلم وسيرهم وأخلاقهم وأسند عن جمهور منهم أحاديث وحكايات وأناشيد وأدعية وطرفا مستطرفة، فجاء كثير الإمتاع، منوع الفنون والأغراض، وصدره بطرف واضح من بيان فضل العلم وصناعة الحديث، وطرق الرواية وكيفية الضبط، إلى غير ذلك من آداب علية، وفوائد حديثية نافعة»[(١)].

إن هذا الصنف يدفعنا إلى درج فهرس احمد المنجور[(٢)] المتوفى بفاس ليلة الاثنين من (١٦ قعدة سنة ٩٩٥هـ ١٩ أكتوبر ١٥٨٧م)، إذ يتسم أسلوب المنجور في الفهرس بأنه مزيج من الأسلوب العلمي الرصين والأدبي المشرق المتحرر... وتتجلى روح الفهرس الأدبية في مئات الأدعية المسجعة المتنوعة التي يأتي بها المؤلف... كما تتجلى في الاستطرادات النثرية والشعرية، كقصة الشيخ علي بن هارون مع أستاذ عود الغناء أبي عبدالله الفاروز الذي انشده وهو نشوان بيتين في الخمر والفرح،... وامتدح شيخه عبد الواحد الونشريسي بالرقة وقوام الطبع في إنشاء الأزجال ولطافة التغزل حتى «بذ فيه شعراء وقته طلبة وعامة» وذكر

---

(١) الرعيني: المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ص: ز -ط

(٢) حققه محمد حجي، ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة الفهارس (١) (الرباط: (١٩٧٦).

توقف الونشريسي عن التدريس يوما حين مر بالمسجد المعلق موكب غناء بأبواب وطبول... فاخرج رأسه من الطاق فأصغى لذلك وقال: ماتأتي هذه لأصحاب العمارية حتى انفقوا فيه مالا معتبرا ونحن نسمعه مجانا فكيف لا نفعل»[١].

ولم يخل من إشارات كثيرة تخرج عن سياق ترجمة الشيوخ فهو يتحدث مثلا عن تعدد طرق رواية المغاربة للفقه المالكي و«عجز المشارقة عن إسناد مذهب مالك»[٢] كما تناول حوادث تاريخية مهمة من خلال تراجم شيوخه كما هو عقد الصلح الذي ابرم بين المريني والدولة السعدية عندما تولى عبد الواحد الونشريسي كتابته على البديهة[٣].

(١) المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص ص: ٥

(٢) المصدر نفسه، ص ص: ١٩، ٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٢

الخاتمة

من كل ما تقدم فقد عكست طرائق تصنيف المؤلفات العلمية عند علماء الأندلس والمغرب جملة أمور هي: -

١- أظهرت تلك المؤلفات عناية العلماء المسلمين بالرحلة في طلب العلم، وحرصهم على توثيق ما أخذوه منها في مختلف العلوم، وصولا إلى السند الأول لتلك المؤلفات، وهي بذلك تعكس دقة وأمانة علمائنا، وتكشف عن طبيعة الحركة العلمية في بلاد المسلمين في مختلف العصور، كما تقدم صورة عن حركة الكتاب وسبل انتقاله مابين المشرق الإسلامي ومغربه.

٢- أعطت تلك المصنفات أسماء الكتب التي ألفها علماؤنا عبر العصور، والتي تضع على عاتق أبناء الأمة من باحثين ومتخصصين مسؤولية العمل الدؤوب من اجل إظهارها بعدما اختفى الكثير منها لأسباب كثيرة وبذلك نكون قد حافظنا وأوفينا العهد لأجدادنا الذين بذلوا ما بوسعهم لإعلاء شأن امتنا ورفعتها.

٣- عكست تلك المصنفات العلمية أساليب التعليم التي اعتمدها علماؤنا والأسلوب الرصين القائم بين الشيخ وتلاميذه، كما قدمت طرق

تناول العلم وهو مايمكن الاستفادة منه في الوقت الراهن وذلك بإيجاد أنماط تعليمية جديدة تسهم في تنشيط الحياة العلمية في بلداتنا العربية والإسلامية.

٤- الاستفادة من كتب الفهارس وذلك بحصر المؤلفات العلمية المفقودة في الوقت الراهن وفي مختلف الحقول العلمية، والسعي من اجل إيجاد مايمكن العثور عليه في خزانات العالم بأسره، حيث ماتزال المكتبات العالمية تحتفظ بالكثير من تلك المؤلفات وهي تدعونا لإظهارها إلى النور، وبهذه المناسبة العلمية ندعو إلى تحقيق ماألفه علماؤنا في الرياضيات من أمثال العالم الرياضي الأديب أبي محمد عبدالله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين من أهل مدينة فاس المتوفى سنة (٦٠١هـ-١٢٠٤م)[(١)] والعالم الرياضي والفلكي الكبير أبو العباس احمد بن محمد بن عثمان الازدي المراكشي الشهير بابن البناء العددي المراكشي (٦٥٤-٧٢٣هـ/ ١٢٥٦-١٣٢٣م) الذي أحصى له كنون خمسة وثمانين كتابا ومنها في الرياضيات[(٢)] كتابه «التلخيص في الحساب

(١) من مؤلفاته المشهورة أرجوزته في علم الجبر وقد شرحها الكثير من العلماء كالمار ديني والقلصادي وابن الهائم، أما كتابه الآخر فهو «تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار والذي مازال محفوظاً في الخزانة العامة بالرباط ضمن كتب المكتبة الكتانية للمزيد عن ذلك ينظر عبدا لله كنون -ذكريات مشاهير رجال المغرب، ابن الياسمين السلسلة ٣١، نشر دار الكتاب اللبناني (بيروت: د ت)، ص: ٩ وما بعدها.

(٢) من مؤلفاته الأخرى كتاب الجبر والمقابلة ومقدمة في أقليدس والمقالات الأربع والأصول والمقدمات في صناعة الجبر والقانون في العدد ومختصر في الساحة وجوابات على مسائل هندسية ومساحية، فضلاً عن مؤلفاته الفلكية والتنجيمية والفلسفية للمزيد عنه ينظر ذكريات مشاهير رجال المغرب - ابن البناء العددي السلسة ٣٢ نشر دار الكتاب اللبناني (بيروت: دن)، ص: ٥ ومابعد

وهو من أشهر تآليفه وشرحه الكثيرون، وكذلك مؤلفات أبي الحسن علي القلصادي المار الذكر الذي اشتهر بتآليفه الكثيرة وأغلبها في الحساب والفرائض والتي بلغت في الحساب ثلاثة عشر كتاب»[١].

---

(١) من مصنفاته في الحساب، غنية ذوي الألباب في شروح كشف الجلباب وكشف الأسرار في علم الغبار وكشف الجلباب عن علم الحساب وشرح تلخيص ابن البناء والتبصره الواضحة في مسائل الأعداد وقانون الحساب وشرحه المسمى «انكشاف الجلباب عن قانون الحساب وشرح الأرجوزة الياسمينية ومختصره ورسالة ذوات الأسماء والضروري في علم المواريث والكليات وشرحه والمستوفى لمسائل الحوفي و«شرحان على التلمسانية» وتقريب المواريث وغيرللمزيد ينظر القلصادي - المصدر السابق، ص ص: ٤٠-٤٧، ومن المفيد أن نذكر أنه نقل العالم الفرنسي أريستيد مار كتاب تلخيص أعمال الحساب فأقبل عليه علماء الغرب ونسب البعض منهم الكثير من نظريات الكتاب لأنفسهم،وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد أعلن العالم الفرنسي شال فضيحة هؤلاء بوثيقة قدمها إلى المجمع العلمي الفرنسي للمزيد ينظر هاشم احمد ويحيى عبد سعيد-موجز تاريخ الرياضيات، نشر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل:١٩٧٧)، ص:١٨٩.

أهمية جبال المغرب في العصر الوسيط

- دراسة في أحوالها العامة -

تتسم أرض المغرب العربي بسمات تضاريسية واضحة المعالم أبرزها التكوين الجبلي الشديد المتمثل بسلسة الأطلس[1] والتي تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بموازاة الساحل بوجه عام، وقد عرفت بجبال درن، وصفها ابن خلدون بقوله: «هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور... مثلت سياجاً على ريف المغرب سطورها تبتدئ من ساحل البحر المحيط - المحيط الأطلسي - عند أسفي وما إليها وتذهب في المشرق إلى غير نهاية، ويقال أنها تنتهي إلى قبلة برنيق من برقة، وهي من الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضا متتالية على نسق من الصحراء إلى التل من تامسنا وسواحل

---

(١) تمتد جبال الأطلس على مساحات واسعة تحديدها اصطلح على تسميتها بثلاث سلاسل هي الأطلس الأكبر الممتد من ساحل المحيط إلى الهضاب الواقعة جنوبي المغرب الشرقي والأطلس الأوسط الممتد إلى تازة والأصغر المعروفة صخوره بقدمها وهو يرتبط بالأوسط بواسطة جبل سارو البركاني للمزيد ينظر عبد العزيز بن عبدالله - تاريخ المغرب، نشر مكتبة السلام (الدار البيضاء: بلا) ١/ ١٠-١٣.

مراكش إلى بلاد السوس ودرعه من القبلة...»[١]، وهي تمتد شرقا على فرعين متوازيين أولهما سلسلة الريف والتل على ساحل البحر المتوسط يصل ارتفاع بعض قممها إلى ٤٠٠٠ م ولا تخترقها إلا ممرات مرتفعة[٢]، وجبال الريف جزء من تلك السلسلة وهي تعد من اعقد المناطق الجبلية في المغرب وهي المعروفة تاريخياً بجبال غماره - نسبة إلى قبيل من بطون المصامدة[٣]، وثانيهما سلسلة الأطلس التي تمتد من منطقة السوس إلى برقة بليبيا مع انقسامها إلى كتل متضرسة تفصل بينها منخفضات[٤].

ويمتد جنوب سلسلة الأطلس العرق الذي يمثل حدود المغرب من جهة القبلة والجنوب ويبتدي من المحيط ذاهبا باتجاه الشرق إلى مصر، تتخلله في جهة المغرب الأوسط أرض صخرية تعرف بـ «الحمادة» وهي ارض محجرة من دوين مصاب إلى «بلاد وريغ»[٥] ومابين العرق وسلسلة الأطلس صحارى شاسعة تتخللها الواحات الخضراء المتوفرة على مياه

---

(١) عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون - العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحاذه، نشر دار الفكر (بيروت: ١٩٨٨) ٦/ ٢٩٨ وسنرمز له بتاريخ ابن خلدون.

(٢) وربما يصل ارتفاع بعض قممه إلى أعلى من ذلك كحال قمة طوبقال ينظر جمال الدين الدنيا صوري - جغرافية العالم - افريقية واستراليا، دار الطباعة الحديثة (القاهرة: ١٩٧١).

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٦/ ٢٨٠.

(٤) عبد العزيز ابن عبدالله - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ط١، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية (المغرب: ١٩٧٥) ١/ ١٢٩، ٢/ ٢٧٧؛ أحمد الغماري - خلفيات الحدود الجيو سياسية للاتراك والفرنسيين تجاه وحده المغرب الكبير، مجلة كلية الاداب، العدد ٢(فاس: ١٩٨٥): ١٣٤.

(٥) ابن خلدون - تاريخ ٦/ ١٣١

كافية لقيام نشاط زراعي جعلها تشتهر فعلاً ببلاد الجريد، وقد سميت بالجريد لكثرة نخليها وهي مدن كثيرة الخصب ومن أهم مدن الجريد نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها بلاد قسطيلة مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة ثم قابس قبلة سوسة ثم فزان وودان قبلة طرابلس ثم الواحات قبلة برقة، وما وراءها في جهة الجنوب قفار لاتنبت زرعا ولامرعى[١].

أما منطقة الهضاب العليا فتقع بين سلسلة أطلس في الجنوب والسلسلة الثانية في الشمال تتخللها تلال ومنخفضات وتغطيها حشائش من جهة المغرب الأقصى هضبة المزيتا المراكشية[٢]، والسهول المرتفعة الممتدة من منطقة ملوية في المغرب الأقصى حتى جبال الجزائر وقد كثرت الشطوط في هذه السهول فعرفت بهضبة الشطوط[٣].

أما على صعيد استقرار القبائل المغربية فقد اشتهرت جبال المغرب

---

(١) مجهول - الاستبصار في عجائب الامصار نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية (بغداد: ١٩٨٦) ١٥- ١٦٠؛ ابن خلدون - تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٢.

(٢) هضبة المزيتا: تقع بين جبال الأطلس الاوسط والاطلس الكبير حتى المحيط بين بلدتي الصويرة والرباط ويفصلها عن جبال الريف مناطق منخفضة تقع فيها المدن الكبرى مثل فاس ومكناسة ومراكش، الديناصوري - جغرافية العالم:٢/١٢٣-١٢٤؛ محمود طه ابو العلا - جغرافية العالم العربي،ط١، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة:١٩٧٣)٢٧٤.

(٣) هضبة الشطوط: وتمتد من المنحدرات الشمالية للاطلس الصحراوي حتى وادي ملوية ويتراوح ارتفاعها مابين ١٠٠٠- ١٢٠٠م، الديناصوري - جغرافية العالم: ٢/ ١٣٣؛ المعهد التربوي الوطني، جغرافية الجزائر والمغرب العربي (الجزائر: ١٩٨٣) ٢١- ٢.

بسكانها من المصامدة يقول ابن خلدون: «فأما المغرب الأقصى.. وهو مابين وادي ملوية من جهة الشرق إلى اسفي حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب فهي على الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغماره وآخر غمارة بطوية ممايلى غساسة ومعهم عوالم من صنهاجه ومضغرة وأوربة وغيرهم..»[١] ويقول في موضع آخر: «فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلاً منها[٢] ويضيف: «هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور... يعمرها من قبائل المصامدة أمم لايحصيهم إلا خالقهم قد اتخذوا المعاقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم... تنتهي ديارهم من هذه الجبال إلى ثنية المعدن ببني فازاز حيث تبتدئ مواطن صنهاجة[٣].

لقد استقرت صنهاجة الجانب الشرقي من جبال درن في البقعة الواقعة بين تازة وتادلة والمنطقة المعروفة بمعدن بني فازاز موطنهم نحو درعة حتى ضواحي السوس الأقصى[٤]، وامتدت ديارهم إلى شواطئ المحيط حتى مشارف جبل درن وهم يحترفون الزراعة والحياكة يقول ابن خلدون: «وكانت مواطنهم مابين المغرب الأوسط وإفريقية وهم أهل مدر، وموطن مسوفه ولمتونة وكدالة وشرطه بالصحراء وهم أهل وبر»[٥].

---

(١) العبر: ٦/ ١٣٣.

(٢) العبر: ٦/ ٢٨٠

(٣) العبر: ٦/ ٢٩٨.

(٤) كانت صنهاجة لكثرتها تبلغ ثلث القبائل القديمة وبأسماء مختلفة بحسب نمط اقتصادها وفي أخرى لقوتها ومواقفها من الدولة فقالوا صنهاجة البز لاحترافها الحياكة والحراثة وقالوا صنهاجة العز لأنهم لايحترفون معاشا وتحصنوا بجبالهم وصنهاجة الظل والقبلة لمواجهتم للشمس للمزيد ينظر ابن خلدون - العبر ٦/ ٢٧٥.

(٥) العبر: ٦/ ٢٠٢.

وكانت مواطن زناتة في افريقية وبلاد المغرب بين غدامس والسوس الأقصى فهم بجبال الأطلس وجبل أوراس والأكثر منهم بالمغرب الأوسط الذي عرف بـ «وطن زناته»[(١)]، ومن زناته كان بنو عبد الواد الذين استقروا المنطقة الواقعة في الصحراء بين سجلماسة إلى أرض الزاب من إفريقية[(٢)].

أما قصة انتقال بعض القبائل العربية فتعود إلى ما قام به الخليفة المنصور يعقوب الموحدي سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م من نقل بطون من بني هلال وبني جشم من افريقية إلى المغرب[(٣)].

■ أولاً: أهمية جبال المصامدة في قيام الدولة الموحدية:-

اشتهرت جبال المصامدة في القرن السادس للهجرة - الثاني عشر للميلاد بحدث تاريخي مهم ذلك هو قيام الدولة الموحدية، وظهور شخصية مصمودية هو أبو عبدالله محمد بن تومرت ومناداته بدعوى جديدة مناوئة لسلطة المرابطين آنذاك.

لقد ولد ابن تومرت في قبيلة جبلية هي قبيلة هرغة من بطون المصامدة[(٤)] رحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة،

---

(١) العبر: ٣/ ٧.

(٢) يحيى بن خلدون - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواو، تحقيق الفرد بل مطبعة بيير مو نطانا الشرقية (الجزائر: ١٩٠٣) ١/ ٩٤.

(٣) محمد الرشيد ملين - عصر المنصور الموحدي - مطبعة الشمال الافريقي (الرباط: بلا) ٢٩٣؛ مزاحم علاوي الشاهري - الاوضاع الاقتصادية في المغرب على عهد المرينين، دار الشؤون الثقافية (بغداد: ٢٠٠١)، ٥٠- ٥٥.

(٤) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٠١.

وتنتقل بالأندلس ودخل قرطبة ثم حج ودخل العراق ولقي جلة من العلماء يومئذ، ورجع إلى المغرب «بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين»[١].

ومنذ دخوله طرابلس أول بلاد المغرب بعد عودته، اخذ ينشر مذهبه مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه، فدخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن منصور بن الناصر بن علناس ابن حماد من أمراء صنهاجة، فأغلظ له ولأتباعه، فخرج منها خائفاً ولحق بملالة بالغرب منها فآووه وأجاروه وهناك لقيه عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه، فأقنعه بالعودة معه ورجع المهدي إلى المغرب وهو في جملته، واستمر على طريقه إلى فاس فمكناسة، ثم إلى مراكش وأقام بها ولقي فيها الأمير علي بن يوسف بالمسجد الجامع فوعظه وأغلظ له القول، ودخل مع علماء المرابطين بمناظرة فكان له الفتح والظهور عليهم، وشعر بالشر منهم فلحق من من يومه باغمات ثم صعد إلى جبال المصامدة، فلحق أولا بمسفيوه ثم بهنتانه حتى وصل إلى ايلكين[٢] التي يسميها المراكشي ايجلي أن وارغن وهي الضيعة (القرية) التي ولد بها من قوم يعرفون بايسرغينن أي الشرفاء بلسان المصامدة[٣].

وما أن حل بايلكيين وكان ذلك سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م حتى شرع ببناء رابطة للعبادة فاجتمع عنده الكثير من الطلبة من أبناء قبائل المصامدة

(١) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٠٢.

(٢) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٠٢- ٣٠٣.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة: ١٩٦٣) ٢٤٥.

يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري وقد أدرك الأمير علي بن يوسف المرابطي خطره على دولته وأمر عامل السوس بتدبير خطة لقتله وذلك بمداخلة بعض رجال هرغه، فعلم أصحابه بتلك المكيدة فقتلوا من داخل في أمره ونقلوا ابن تومرت إلى «معقل أشياعهم»[١].

أمضى ابن تومرت ثلاث سنوات يعلم أتباعه وينظمهم من جهة ويقاتل الحملات المرابطية التي كانت تشن لمقاتلته من جهة أخرى ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان قبلها يلقب بالإمام ويسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين، وانتقل بعد بيعته إلى جبل تينملل فبنى داره ومسجده بينهم قريباً من وادي نفيس»[٢].

قدّم لنا ابن القطان وصفا لموضعه في تينملل حيث قال: «ولا أعلم مدينة أحصن ولا أمنع منها، إذ أنها بين جبلين لا يدخلها الفارس إلا من شرقيها وغربيها، فأما غربيها فطريق أوسع مابه ما يمشي عليه الفارس وحده، وأضيقه ما ينزل عن فرسه خوفا من سقوطه لان الطريق مصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها احد، ومسافاتها على هذه الصفة نحو من مسيرة يوم، وكذلك من شرقيها، وهي طريق مراكش على صفة الغربية»[٣].

ويزيد مؤلف من القرن الثامن للهجرة-الرابع عشر للميلاد وصف

---

(١) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٠٣- ٣٠٤

(٢) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٠٤

(٣) جزء من كاب نظم الجمان - تحقيق د. محمود علي مكي، نشر كلية الاداب والعلوم الانسانية (الرباط: بلا) ٩٥.

الموضع الذي استقر به المهدي قائلاً: «وهذا الجبل جبل درن، جبل مثلج أبدا وتتصل به من جهة تلمسان جبال أخرى تنقطع عند قابس واحواز الجمة[١] وهي مسيرة شهرين»[٢].

لقد استنزف الجبل إمكانيات المرابطين، وحقق انتصارات متلاحقة عليهم، فنالت من قوة الدولة المادية والمعنوية، فلم يعد من خيار أمامهم إلا قتالهم عسى أن يدفعوا عنهم خطرهم، فقضى الأمير علي بن يوسف المرابطي أكثر مدته في حروب معهم، وكلما وجه جيشا عاد مهزوما يقول صاحب الحلل الموشية: «احتفل أمير المسلمين علي بن يوسف في تجهيز عسكر إلى الجبل الذي كان فيه الموحدين، وقدم عليه أخاه الامير أبا طاهر تميما، فخرج بعسكر كبير، وعندما صعد به في مضائق الجبال، وشواهق تلك الاوعار، سدت عليه أفواه تلك الجبال، وأدبروا ليلاً منهزمين دون قتال... وكانت هذه الهزيمة بمقربة من جبل كيك... وجد الموحدون في إتباع أثرهم إلى أن وصلوا إلى مقربة من جبل وريكة بقبلي اغمات فخرج إليهم عسكر لمتونة - فمزقهم الموحدون»[٣].

أحصى البيذق للمهدي تسع غزوات، وفي السابعة منهم وهي الغزوة المعروفة بـ «هسكوره» شج رأسه وحمل من المعركة جريحا واستمرت المعركة حتى انتصر الموحدون، وغاب عن الغزوة الثامنة المعروفة بغزوة البحيرة تلك المعركة التي انتهت بهزيمة الموحدين وقتل قائدها البشر من أصحاب المهدي»[٤].

---

(١) موقع معروف في تونس يبعد قرابة ٢٢كم من المهدية.

(٢) كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامه، نشر دار الرشاد الحديثة (الدار البيضاء: ١٩٧٩) ١١٣.

(٣) مؤلف مجهول: ١١١- ١١٢.

(٤) أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروفنسال سنة ١٩٢٨، ٧٣- ٨٠.

لقد ترتب على هذه الخسارة صدمة شديدة ألزمت المهدي بن تومرت الفراش حتى وفاته في رمضان سنة ٥٢٤هـ / فقام بالأمر من بعده الخليفة عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة وذلك أن ابن تومرت قد أوصى قبل موته بأيام الجماعة وأهل الخمسين بخطبة انتهى فيها إلى اختياره قائلاً: «وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميرا عليكم هذا بعد أن بللوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناه في ذلك ثبتا في دينه، متبصراً في أمره، واني لأرجو ألا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه» فبايعه القوم، ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير»[1].

لقد سار الخليفة عبد المؤمن بن علي على نهج المهدي بالتحصن بالجبال المنيعة يقتل ويغنم، تغير سراياه يمنة ويسرة حيث الأرزاق الواسعة بينما يسلك الأمير تاشفين بن علي المرابطي البسائط بعساكره يقول ابن خلدون: «واجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزاته الطويلة منذ سنة ٥٣٤هـ إلى سنة ٥٤١هـ ولم يراجع فيها تينملل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين، خرج إليها من تينملل وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسائط والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب والدفء. . .»[2].

وأخيراً فما عاد للموحدين رغم كل فتوحاتهم من أمر غير دخول مراكش عاصمة المرابطين فرجع الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦ م واتخذ مقره، فوق جبل ايجليز «ايكلين» المطل على مدينة

(١) المراكشي - المعجب: ٢٦٤

(٢) العبر: ٦/ ٣٠٦.

مراكش ولازم حصارها مدة تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ولما طال على المرابطين الحصار وهلكوا من الجوع طلب الأمير إسحاق بن علي بن يوسف بالخروج لقتال الموحدين وكان عبد المؤمن قد أمر أصحابه أن يكمنوا لهم حتى إذا خرجوا انهزموا في الحين وولوا الأدبار والسيف يصفح رقابهم.. واتبعهم عسكر الموحدين وهم في عجز عن الدفاع والامتناع لضعف العدد والعدة وفتحت مراكش حينئذ[١].

■ ثانياً: جبال غمارة ومشيخة الغزاة في الأندلس:

عرفت جبال درن الممتدة غرباً من جبال أنجره على ساحل بحر الزقاق بجبال غماره - الأطلس الساحلي[٢]، وقد أخذت اسمها في رواية من غمار بن مصمود - قبيلة من بطون المصامدة - وتقول بعض العامة «أنهم عرب غمروا في تلك الجبال فسموا غماره» ومهما يكن من أمر فهم قبائل أكثر من أن تحصر، «يعتمرون رحاب الريف بساحل بحر الدر من عن يمين بسائط المغرب من لدن غساسة فتكرر فبادس فتبكيساس فتيطاوين فسبته فالقصر إلى طنجة خمس مراحل أو أزيد، أوطنوا منها جبالاً شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجا بعد سياج خمس مراحل في العرض إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادي ورغه من بساط المغرب، ترتد عنها الأبصار وتنزل في حافاتها الطيور ولا بل الهوام وينفسح في رؤوسها وبين قننها الفجاج، سبل السفر ومراتع السائمة وفدن الزراعة وادواج الرياض. . .»[٣].

---

(١) ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، نشر دار الغرب الإسلامي (بيروت: ١٩٨٥) ٢٧- ٣١.

(٢) عبد الوهاب بن منصور قبائل المغرب- نشر المطبعة الملكية (الرباط: ١٩٨٦) ٨.

(٣) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١.

وبسبب تلك الخصائص الجغرافية التي تتمتع بها جبال غماره باتت مقصداً لكثير من الخارجين لمنعتها،[١] وكثيراً ماامتنعت قبائلها عن طاعة الدول التي حكمت بلاد المغرب الأقصى، وعلى سبيل المثال لا الحصر، لما استولى بنو مرين على المغرب واز الو نفوذ الموحدين نهائيا سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، امتنعت تلك القبائل عن طاعتهم واستعصت عليهم وترتب على ذلك استقلال الفقيه أبي القاسم العزفي في سبته.

وبوجه عام فقد كانت تلك القبائل تؤتي طاعتها عند استقرار الدول، وتتمرد عند انشغال السلطات بحروب خارجية أو مشاكل داخلية قاهرة، مما يدفعها بعد ذلك إلى تجهيز الحملات عليهم حتى يستقيموا على الطاعة، وكثيراً ماكانت تفرض لهم العطاء في ديوان سبتة استئلافاً لهم، واقطاعهم ضياعاً في بسيط طنجة حسماً لولائهم وتهدئة لزعمائهم[٢].

لقد شهد القرن السابع للهجرة - الثالث عشر للميلاد زوال دولة الموحدين وقيام زعامات محلية استقلت في مناطقها فكان المغرب الاقصى من حصة بني مرين بعد صراع مرير دار بينهم وبين سلطة الموحدين منذ ظهورهم الاول على مسرح الاحداث السياسية بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب الشهيرة في الاندلس سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م[٣].

(١) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٨١.

(٢) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٩٧- ٢٩٨.

(٣) استقل الحفصيون في تونس والزيانيون في الجزائر والمرينيون في المغرب الاقصى وغرناطة في القسم الجنوبي من الاندلس ينظر شارل اندريا جوليان - تاريخ افريقيا الشماليه، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامه، الدار التونسية للنشر (تونس: ١٩٨٥) ٢/ ١٧٣.

وفي خضم الصراع الدائر بين المرينيين والموحدين بويع يعقوب بن عبد الحق سلطانا عليهم بعد وفاة أخيه أبي يحيى الامر الذي أغاض ابن اخيه يعقوب بن عبدالله إذ كان حاكماً على مدينة سلا في عهد عمه أبي يحيى، وكان يطمع في ملك بني مرين وهو مادفعه إلى الاستيلاء على رباط الفتح وسلا لما اسر في نفسه، وجاهر بالخلع، فسمع عمه يعقوب بن عبد الحق، وكان بتازى مستشرفاً لاحوال يغمراسن بن زيان امير بني عبد الواد، فوصل سلا وفتحها عنوة، وخشي يعقوب بن عبدالله على نفسه فخرج من ربا ط الفتح ولحق بحصن علو دان من جبال غمارة، فامتنع به بينما ارسل السلطان ابنه مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته[١].

لقد ازداد الأمر صعوبة على السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني عندما هرب اولاد اخيه ادريس الذين اجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن ادريس بن عبد الحق لانهم رأوا انهم احق بالملك من عمهم لأن اباهم هو الاكبر من ولد عبد الحق فخرجوا على عمهم ولحقوا بقصر كتامه ليلتحقوا بابن عمهم يعقوب بن عبدالله ثم انضم اليهم من كان علي رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة، فخرج عليهم السلطان يعقوب بن عبد الحق وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم فعقد لعامر بن ادريس سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م على جيش من ثلاثة الاف فارس أو يزيدون من المتطوعة وبعثهم إلى الاندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة..»[٢]، وهذه الحملة شكلت البداية الاولى لمشيخة الغزاة في الاندلس.

---

(١) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٢٣٦.

(٢) أحمد بن خالد بن محمد الناصري - الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء: ٣/ ٢٣.

وعندما رجعوا إلى الغرب انقلبوا على عمهم مرة اخرى سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م وذلك عندما بايع السلطان يعقوب ولده الامير عبد الواحد وليا للعهد على حكم المرينيين سيما وان دولة الموحدين قد زالت على يديهم باستيلائهم على العاصمة مراكش سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م[(١)]، غير ان تمردهم هذه المرة قد اتسع وذلك بتضامن من اولاد ادريس بن عبد الحق وابناء عمومتهم وكانت رئاستهم يومئذ لمحمد بن ادريس وموسى بن رحو بن عبدالله وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق، فاعتصموا بجبل علودان من جبال غمارة «عش خلافهم ومدرج فتنتهم»[(٢)].

جهز السلطان يعقوب جيشاً قوامه خمسة آلاف بقيادة ولده الامير يوسف فحاصرهم ولحقه كذلك اخوه أبو مالك عبد الواحد ومسعود بن كانون شيخ سفيان والتقوا في تامركا، واشتبكت القوه مدة ثلاثة ايام ولما شعر محمد بن ادريسومن معه من المتمردين ان لاطاقة لهم في مواجهة قوة السلطان المريني طلبوا الامان فاستجاب لهم وصالحهم واخذهم إلى العاصمة فاس لكن الكثير منهم طلبوا اللحاق بتلمسان حياء من كبر مارتكبوه فاذن لهم فاجازوا البحر إلى الاندلس فيما ظل عامر بن ادريس بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م عندما تحرك السلطان يعقوب بن عبد الحق لمواجهة تحشدات السلطان يغمراس بن زيان والانتصار عليه في واقعة ايسلي بالقرب من وجده[(٣)].

(١) علي بن ابي زرع الفاسي - الأنيس المطرب بروض القرطاس، نشر دار المنصور للطباعة والوراقه (الرباط: ١٩٧٣): ٣٠٧؛ مجهول - الحلل الموشية: ١٧١

(٢) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٢٤٢.

(٣) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٢٤٣.

أما بنو ادريس وعبدالله وابن عمهم أبو عياد فقد انصرفوا للجهاد في الأندلس وتنازل لهم سلطان غرناطة عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من اهل العدوة من اعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من امم البربر «فاوقفوا أطماع النصارى في ماتبقى للمسلمين من مدن مملكة غرناطة» يقول ابن خلدون: «فاحتلوها اسوداً ضارية وسيوفا ماضية... مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز ومسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو... وارتدوه على عقبه، ونشطوا من هم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم. . »[١].

أنيط منصب مشيخة الغزاة بعد سنة٦٧٠هـ/ ١٢٧١ م لموسى بن رحو بن عبدالله بن عبد الحق ثم لاخيه من بعده عبد الحق الذي عاد إلى تلمسان فولي مكانه على الغزاة المجاهدين ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف، ثم تولاها موسى بن رحو وحمو بن عبد الحق من بعده «فكانت هذه الامارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت إلى اخوانهم من بني أبي العلاء»[٢].

ويظهر دور المشيخة الغزاة على عهد عبدالله بن أبي العلاء الذي خاض سلسلة من المعارك في الأندلس حتى استشهد وهو في عدة الجهاد سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م فقدم السلطان النصرى اخاه عثمان بن أبي العلاء الذي كان قائدا على الحامية في مالقة والمناطقالمجاورة لها يصبح بعد ذلك قائداً عاما للمجاهدين من المغاربة هناك[٣].

والجدير بالذكر ان الصراعات السياسية التي كانت تدور في بلاط

---

(١) العبر: ٧/ ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٤٨٦- ٤٨٨

(٣) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٤٩١

النصريين في غرناطة دفعت عثمان بن أبي العلاء بن عبدالله وبايعاز من الامير أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر الذي غرر بالمرينين واحتل سبته سنة٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م ان يحرضه على الانتقال إلى المغرب، فوصل إلى جبال غمارة ودعا لنفسه هناك، ثم تحرك على مدينتي اصيلا والعرائس حتى غلبة الامير أبو الربيع المريني سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ م فعاد إلى مكانه بالأندلس[١].

لقد أصبح هذا المنصب واقعاً مهماً في حياة غرناطة رغم كل العوارض الجانبية التي تسبب فيها ومنها تدخل شيوخه في شؤون غرناطة إلا أنه أصبح قوة عسكرية في غرناطة وصنفاً اسياساً من صنفين في جيشها الغرناطي يخضع لادارة غرناطة وينفذ واجباتها، ويرتبط رؤساؤه بحاكم غرناطة على ان يكون رؤساؤه من اسرة المرينين يقول ابن الخطيب: «وجندهم صنفان اندلسي وبربري والاندلسي منه يقوده رئيس من القرابه أو أحظياء الدولة... والبربري منه مع قبائله المرينية والزيانية... إلى أقطاب ورؤس يرجع امرهم إلى رئيس على رؤسائهم وقطب لعرفائهم من كبار القبائل المرينية يمت إلى ملك المغرب ينسب»[٢].

وأخيراً فان جهود شيوخ الغزاة لم تتوقف عند هذا الحد فبعد ان توفي عثمان بن أبي العلاء سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م خلفه ولده عامر بن عثمان الذي سار على منهج أبيه و«عظم شأنه قوة وشكيمة» كما وصفه ابن الخطيب بانه «قريع دهره في النكراء والدهاء المسلم له في الرتبة عتاقة ورأياً وثباتاً»[٣] إلى أن نكبه الأمير يوسف بن اسماعيل المكنى بابي الحجاج

---

(١) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٤٩٢.

(٢) اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الافاق الجديدة (بيروت: ١٩٨٠) ٣٩.

(٣) اللمحة البدرية: ١٠٥.

وقضى عليه وعلى اخوته يوم التاسع والعشرين من ربيع الاول عام احدى واربعين وسبعمائة واقام شيخاً ورئيساً... ابن عمهم يحيى بن عمر بن رحو...» ثم تعاقب عليه بعده عدد من الشيوخ حتى انتهت من نظام الجيش في غرناطة بمحوها من قبل السلطان محمد الخامس بامارته الثانية سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م وتولى قيادتها بنفسه[١].

■ **ثالثاً: جبال هسكورة تحتضن شيخ أهل المغرب الآبلي: -**

تعد هسكورة أخوة صنهاجة لام[٢]، ويدرجهم بعض النسابين أحيانا مع مصمودة للجوار وقرب السكن[٣]،ومرة يجعلونهم من أكثر قبائل المصامدة[٤]، ومهما يكن من أمر فقد كانوا في منتصف القرن الثامن للهجرة - الرابع عشر للميلاد في عداد المصامدة، وكانوا أمما كثيرة وبطوناً واسعة تمتد مواطنهم بجبال متصلة من درن إلى تادلا من جانب القبلة[٥].

لقد وصف ابن خلدون جبلهم بالقول: «دون القنة منها والذروة، واعتصموا منه بالآفاق الغدد، واليفاع الأشم، والطود الشاهق، قد لمس الأفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه، وتلفع بالسحاب في مورطه، وآوى

---

(١) ابن خلدون - العبر: ٧- ٥٠٠- ٥٠٢؛ وللمزيد ينظر مزاحم علاوي الشاهري - مشيخة الغزاة ودورها في بلاد الاندلس، مجلة المورد، نشر دار الشؤون الثقافية، المجلد التاسع والعشرون، العدد الرابع (بغداد، ٢٠٠١) ٦٧- ٧٤.

(٢) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٧٠؛ عبد الوهاب بن منصور - قبائل المغرب: ١/ ٣٣٥؛ ويقسمهم البيذق إلى قسمين هسكورة القبلة ولهم من الأفخاذ سبعة وهسكورة الظل ولهم من الأفخاذ إحدى عشرة للمزيد ينظر المقتبس من كتاب الأنساب: ٥٢- ٥٣.

(٣) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٧١

(٤) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٥٤

(٥) ابن خلدون - العبر٦، / ٢٧١

الرياح العواطف لدجوه، وألقى إلى خبر السماء بإذنه، واطل على البحر الأخضر بشماريخه واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره، وأقام سائر جبال درن في حجره»(١).

وهذا الوطن الذي سكنوه جعلهم في منأى عن السلطة الحاكمة في المغرب، فلما زال حكم الموحدين في المغرب وتغلب بنو مرين على المغرب الأقصى اعتصم أهل «هسكورة بمعقلهم واعتزموا في بمنعتهم، فلم يغمسوا في خدمتهم يدا، ولا أعطوهم مقاداً، ولارفعوا بدعوتهم رايه، إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام. . .»(٢).

وما يهمنا من قبيلة هسكورة احد بطونها وهم بنو نفال الذين كانت رياستهم لأولاد ترروميت وكبيرهم يومئذ علي بن محمد الذي هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف في عهد السلطان علي بن عثمان المريني ٧٣١هـ- ٧٥١هـ/ ١٣٣١- ١٣٥٠م(٣).

وقصة هذا الشيخ علي بن محمد بن ترروميت ترتبط بصحبته للعالم أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلي (ت ٧٥٧هـ/ ١٣٥٥م)(٤) شيخ العلوم

---

(١) العبر: ٦/ ٣٥٤

(٢) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٣٥٤.

(٣) ابن خلدون - العبر: ٦/ ٢٧٢

(٤) ولد بتلمسان سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٣م وينحدر من مدينة ابله بالأندلس خرج وحج ولقي أعلام المشرق وعاد إلى المغرب، وعمل في عاصمتي بني عبد الواد في تلمسان وبني مرين في فاس ثم توفي بفاس. ترجم له العديد ويأتي في مقدمة تلامذته العلامة ابن خلدون ينظر العبر: ٧/ ٥١٣- ٥١٤؛ احمد بن محمد المكناسي، ابن القاضي - جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط: ١٩٧٣) ١/ ٣٠٤؛ ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنه في اعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦، ٣/ ٣٧٥.

العقلية في عصره والذي مثل تيار الرشدية الجديدة على حد تعبير احد الباحثين المعاصرين[١].

كان الآبلى معلماً للعلوم العقلية، بثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر المدن، ويكفى أن نقدر أهمية هذا الشيخ العالم الذي درس على يديه ابن خلدون قائلاً: «وأخذت عنه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك[٢].

لقد طلب علي بن محمد بن تروميت من الآبلي القراءة عليه ودعاه إلى ضيافته لتعم الفائدة على أبناء جلدته، فوافق على ذلك، وصعد إلى جبله وأقام عنده مدة، فقرا عليه وكان ذلك فرصة مهمة لطلبة العلم الذين درسوا عليه وظل ابن تروميت على محبته وتعظيمه وامتثال إشارته للآبلي[٣].

كذلك لم تكن المدة التي قضاها الآبلي في جبل الهساكرة قليلة فقد اقر ابن خلدون أن المدة التي قضاها هناك كانت عدة أعوام قبل أن يستدعى الشيخ ابن تروميت من قبل السلطان عثمان بن يعقوب المتوفى سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١ م ويسكنه بالعاصمة فاس والآبلى معه[٤] وهذا مايشير إلى النشاط العلمي الذي شهدته تلك المنطقة والفرصة الذهبية التي اغتنمها

---

(١) عبد المجيد مزيان - مدرسة الآبلي وانتشار الرشدية الجديدة منشور في كتاب التراث الحضاري المشترك بين اسبانيا والمغرب نشر مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (الرباط: ١٩٩٢) ٩١- ٩٥.

(٢) العبر: ٧/ ٥١٤

(٣) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٥١٤- ٥١٤

(٤) ابن خلدون - العبر: ٧/ ٥١٤.

طلبة العلم على يديّ شيخ العلوم العقلية في عصره، سيما إذا ماوضعنا نصب أعيننا طبيعة البلاد الجبلية وصعوبة الوصول إليها، ونسبة الجهل فيها اذ ليس بالبعيد عن تلك المدة ما واجهه المهدي ابن تومرت في تعليم المصامدة أم القرآن لشدة عجمتهم فقد عدد كلمات أم القرآن، وسمى بكل كلمة منها رجلاً، ثم أقعدهم صفا واحداً فقال للأول منهم: اسمك الحمد لله، والثاني رب والثالث العالمين، وهكذا حتى تمت كلمات السورة، ثم قال لهم: لايقبل الله لكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء كلها على نسقها في كل ركعة من الصلاة «وبذلك سهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن»[1].

(١) الانيس المطرب: ١٨٣.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

❶ **البيذق / أبو بكر بن علي الصنهاجي.**

١ ● **أخبار المهدي بن تومرت** وابتداء دولة الموحدين نشر ليفي بروفنسال / ١٩٢٨.

٢ ● **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط: ١٩٧١).

❷ **ابن حجر العسقلاني / شهاب الدين احمد**

٣ ● **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جار الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني ١٩٦٦.

❸ **ابن الخطيب / لسان الدين بن محمد بن عبدالله.**

٤ ● **اللمحة البدرية في الدولة النصرية.** (دار الافاق الجديدة (بيروت: ١٩٧٨)

❹ **ابن خلدون / عبد الرحمن بن محمد**

٥ ● **العبر وديوان المبتدأ والخبر** في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تحقيق خليل شحاذة، نشر دار الفكر (بيروت: ١٩٨٨).

⑥ **ابن خلدون / يحيى بن محمد**

٦ • **بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد**، تحقيق الفرد بل، مطبعة بيير مونطانا الشرقية (الجزائر: ١٩٠٣).

⑦ **ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبدالله**

٧ • **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة** فاس، نشر دار المنصور للطباعة (الرباط: ١٩٧٢)

⑧ **ابن عذاري المراكشي.**

٨ • **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** - قسم الموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، نشر دار الغرب الإسلامي (بيروت: ١٩٨٥).

⑨ **ابن القاضي / احمد بن محمد**

٩ • **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس** نشر دار المنصور لطباعة والوراقة (الرباط: ١٩٧٣).

⑩ **ابن القطان**

١٠ • **جزء من كتاب نظم الجمان ظن** تحقيق د.محمود علي مكي، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

⑪ **المراكشي / عبد الواحد**

١١ • **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة: ١٩٦٣).

⑫ **مجهول مؤلفه**

١٢ • **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية (بغداد: ١٩٨٦).

⓭ مجهول مؤلفه

١٣ ● **كتاب الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشية** حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامه، نشر دار الرشاد الحديثة (الدار البيضاء: ١٩٧٩).

⓮ الناصري / أحمد بن خالد بن محمد

١٤ ● **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، نشر دار الكتاب (الدار البيضاء: ٥٤- ٥٩).

ثانياً: المراجع العربية والمعربة: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

❶ الديناصوري / جمال الدين.

١٥ ● **جغرافية العالم - إفريقية واستراليا**، دار الطباعة الحديثة (القاهرة: ١٩٧١).

❷ جوليان / شارل اندريا

١٦ ● **تاريخ افريقيا الشمالية** تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامه الدار التونسية للنشر (تونس: ١٩٨٥)

❸ بن عبدالله / عبد العزيز

١٧ ● **تاريخ المغرب**، نشر مكتبة السلام (الدار البيضاء: بلا)

١٨ ● **الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية**، ط١، مطبوعات وزارة الاوقاف المغربية (المغرب: ١٩٧٥)

❺ أبو العلا / محمود طه

١٩ ● **جغرافية العالم العربي**، دراسة عامة واقليمية، ط١، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة، ١٩٧٣)

❻ **الشاهري / مزاحم علاوي**

٢٠ ● **الاوضاع الاقتصادية في المغرب على عهد المرينيين** دار الشؤون الثقافية (بغداد: ٢٠٠١).

❼ **المعهد التربوي والوطني**

٢١ ● **جغرافية الجزائر المغرب العربي** (الجزائر: ١٩٨٣)

❽ **ابن منصور / عبد الوهاب.**

٢٢ ● **قبائل المغرب** المطبعة الملكية (الرباط: ١٩٦٨)

❽ **محمد الرشيد**

٢٣ ● **عصر المنصور الموحدي** مطبعة الشمال الافريقي (الرباط: بلا).

ثالثاً: البحوث ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

❶ **الغماري / أحمد**

١ ● **خلفيات الحدود الجيو سياسية للاتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير**، مجلة كلية الآداب العدد ٢(فاس: ١٩٨٥)

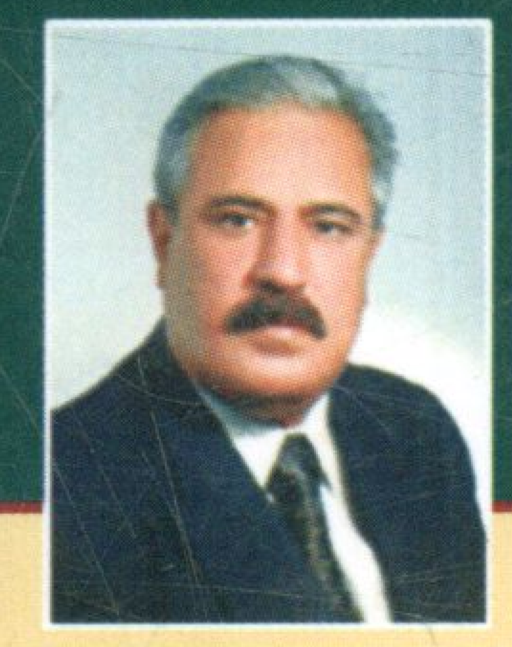
❷ **الشاهري / مزاحم علاوي**

٢ ● **مشيخة الغزاة ودورها في بلاد الأندلس**، مجلة المورد، نشر دار الشؤون الثقافية م٢٩، ع٤(بغداد: ٢٠٠١)

❸ **مزيان / عبد المجيد**

٣ ● **مدرسة الآبلي وانتشار الرشدية الجديدة** منشورات في كتاب التراث الحضاري المشترك بين اسبانيا والمغرب نشر مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (الرباط: ١٩٩٢).

فهرس المحتويات



مزاحم الشاهري

■ مواليد الموصل (العراق) – ١٩٥٥.

■ متخصص في تاريخ المغرب العربي الإسلامي

■ بكالوريوس تاريخ – قسم التاريخ - جامعة الموصل - كلية التربية - ١٩٧٩.

■ ماجستير آداب في التاريخ الإسلامي – جامعة الموصل – كلية الآداب ١٠/٦/١٩٨٥.

■ دكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي – جامعة الموصل – كلية الآداب ٢/٤/١٩٩٥.

■ من نتاجه العلمي:

■ الحضارة العربية الإسلامية في المغرب – العصر المريني - عمان ٢٠١٢.

■ الأوضاع الاقتصادية على عهد المرينيين – دار الشؤون الثقافية – بغداد ٢٠٠١.

■ مظاهر ثقافية من تاريخ المغرب.

مؤلفاته الشعريه

■ الحلم مملكتي. ■ قمر الحي. ■ ما تبقى. ■ رماد كائن في الليل.

■ أشرف على الكثير من رسائل وأطاريح التاريخ في جامعتي الموصل ولاهاي الدولية.

■ شارك في الكثير من المؤتمرات المحلية والعربية والدولية.

■ أستاذ فلسفة التاريخ في جامعة الموصل – كلية التربية.

■ أستاذ مادة التاريخ الأندلسي والمغربي في الدراسات الأولية والعليا.

■ نشر في عدد كبير من المجلات والصحف العربية.

■ عضو اتحاد المؤرخين العرب.

■ عضو في جمعية المؤرخين والآثاريين في نينوى.

■ شغل منصب مدير مركز دراسات الموصل – جامعة الموصل منذ عام

■ يقوم حالياً بمهام رئيس قسم الدراسات التاريخية في جامعة لاها

البريد الإلكتروني: mozahim__a@yahoo.com




ISBN 978-614-424-162-2
9 786144 241622